محاضرات
حول تفسير خواتيم
سورتَي البقرة وآل عمران
والمعوِّذات وأذكار بعد الصلوات

ألقاها

الإمام العارف المفسّر المحدّث

الشيخ عبد الله سراج الدّين الحسيني

رحمه الله تعالى ورضي عنه

جمع وتقديم

وَلَدِهِ المهندس

محمد مُحيي الدين سراج الدين

دكتوراه في الدراسات الإسلامية

اعتنى بتخريج أحاديثها وضبط ألفاظها

خادم العلم الشرعي

د . بكري بريمو السمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارىء الكريم
هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة
إلى العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام الحافظ المفسِّر المحدِّث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
وإلى والده العلّامة العارف الكبير
حامل لواء الحُجَّة بالكتاب والسنة الشيخ
محمد نجيب سراج الدين الحسيني
رضي الله عنهما وجزاك الله خيراً

الموقع الرسمي للشيخ الإمام
www.srajalden.com

كلمة شكر وتقدير

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[لا يشكر الله من لا يشكر الناس] [1]

تحقيقاً لنصوص الكتاب الكريم والسنة الشريفة في إسناد المعروف إلى أهله وشكرهم على إتقانهم عملهم ، فإني أتقدَّم بالشكر والثناء لمن كانت له يد بيضاء وجهد خفي - منذ سنوات عديدة - في إظهار ما صدر من الكتب المتعلقة بما نُقل عن الشيخ الإمام رضي الله عنه من بيانات ونصوص ودروس ومحاضرات - وما سيصدر إن شاء الله تعالى - ، وإخراجِها بهذه الحلّة النافعة الزاهرة ، تجلّى ذلك في ضبط الألفاظ من حيث اللغة ، والتوسع في تخريج الأحاديث النبوية الشريفة وضبط ألفاظها ، فلم يَكْتفِ بالموسوعات الإلكترونية وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ، بل رجع في توثيق ذلك إلى المكتبات العالمية كمكتبة الإسكندرية والمكتبات الوقفية وغيرها ، والمخطوطات الموجودة فيها ، وكذا ما وجد عند كبار أهل العلم من كتب بطبعات قديمة كالطبعات البولاقية والميمنية .

إن الذي قام بذلك هو :

خادم العلم الشريف الأخ الأستاذ : بكري بريمو السمان

وفقه الله تعالى لما فيه رضاه ، وبارك في نفعه في التربية والتعليم .

وقد لازمني أخي بكري منذ سنة ١٤١٨ هـ وأكرمه الله تعالى بالأخذ عن مولانا الشيخ الإمام في مجالسه الخاصة في بيته المبارك ، وشملته أنظار ودعوات مولانا الإمام .

---

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب البر والصلة وصحَّحه ، ورواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وعندما استأذن الأخ بكري مولانا رضي الله عنه في الذهاب إلى العمرة خصّه بمكرمة كبرى حيث قال له :
اعتمر بدلاً عني وقل :
(يا رب أُهدي ثواب هذه العمرة لسيدي الشيخ عبد الله سراج الدين)
وقد امتثل الأخ بكري أمر الشيخ الإمام ، تقبّل الله منه ... آمين .

ومرة قَصَّ أخي بكري على سيدنا الشيخ الإمام رؤيا مباركة رأى فيها حضرة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم فأقرَّه مولانا وبشَّره ببشارة عظيمة وأجازه بورد خاص وأوصاه بالمحافظة عليه ..
ثم طلب من مولانا الإمام أن يتفضل عليه بالإجازة فقال له رضي الله عنه (أجيزك يا بنيّ بما أجازني به شيوخي من الحديث الشريف والتفسير المنيف وبما لي من مرويات ومقروءات ومسموعات وبما سمعته مني وما لم تسمعه مني ، وأجيزك بإجازة من تراه أهلاً لذلك ، راجياً من الله تعالى أن لا يقطع هذه السلسلة الطاهرة المباركة إنه لسميع الدعاء) . اهـ

وبعد وفاة مولانا الإمام رضي الله عنه رأيت شيخنا الإمام مرات عديدة راضياً عن أخي بكري مبشِّراً له ومسروراً بجهوده وإخلاصه .

وقد خَصَّ الله تعالى أخي الأستاذ بكري بالعناية بتحقيق تراث مولانا العلمي كلَه ، فمن الكتب التي اعتنى بها وطُبعت بحمد الله وتوفيقه :

(دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم) و(محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم) الجزء الثاني والثالث و (محاضرات حول الفضائل المحمدية) و (محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر) و(محاضرات حول الإسراء والمعراج)
و(محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم)
و (محاضرات حول عالم الجنة) وكتابنا هذا ..
وغير ذلك كثير مما لم يطبع بعد ونسأل الله المزيد من فضله .

وقد عرفت في شخص أخي بكري الصدق والإخلاص والتفاني في خدمة مولانا الإمام رضي الله عنه ومحبته ونشر تراثه العلمي ، وله ديوان في مديح النبي صلى الله عليه وسلم والأولياء والصالحين لم يُطبع بعد .

وقد حصل الأستاذ بكري على ثانوية التعليم الشرعي الخاصة ، وتخرّج من معهد التعليم الشرعي (الشعبانية) بحلب بتفوق باهر سنة ١٤٢٠ هـ إلى جانب حصوله على الثانوية السورية العامة .
كما نال الإجازة العالية (الليسانس) في علوم الحديث النبوي الشريف سنة ١٤٢٥ هـ .
ثم حاز على الماجستير في علوم اللغة العربية وآدابها سنة ١٤٣٢ هـ
ثم أكرمه الله تبارك وتعالى بنيل الشهادة العالمية (الدكتوراه) سنة ١٤٣٥ هـ

ولأخي الأستاذ بكري خبرة عملية في تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية منذ سنة ١٤١٧ هـ ، لأن الله تعالى فَطَره على حب العلم تعلّماً وتعليماً منذ سِني طلبه الأولى ، كما أن له خبرة في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها ، ولا يزال يقوم بالتدريس في الكلّيات العامة والخاصة وفّقه الله تعالى لما فيه رضاه .

وللتواصل معه عبر شبكة المعلومات (الإنترنت)

www.ostazbakri.com

ostazbakri@gmail.com

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى

حول تفسير خواتيم سورة البقرة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(بينما جبريل قاعد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه) - أي سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتاً من فوقه ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع ما لا يسمع غيره ويرى ما لا يرى غيره كما قال عليه الصلاة والسلام : (إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون) [1] ، وهذا الصوت من السماء - ، (فرفع رأسه فقال :) - أي : جبريل عليه السلام - : (هذا باب من السماء فُتح اليوم ، لم يُفتح قَطُّ إلا اليوم ، فنزل منه ملك) - وقد رآه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يرى ما لا يرى غيره - (فقال :) - أي : جبريل عليه السلام - (هذا ملَك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلَّم) - أي الملك - (وقال : أبشر) - أي جئتك ببشارة من عند الله يا رسول الله - (بنورين أوتيتَهما لم يؤتَهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته). [2]

إن الذي نزل بنص القرآن وكلماته على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو جبريل الأمين عليه السلام بدليل قوله تعالى :

{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ }

---

[1] سنن ابن ماجه كتاب الزهد عن أبي ذر رضي الله عنه .

[2] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

إلا أنه قد ينزل ببعض خصائص وأسرار بعض السور والآيات غيرُه من الملائكة الكرام عليهم السلام كما في هذا الحديث .

وقوله :(أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته) [١]

وفي رواية : (إلا أوتيته) [٢]

(فاتحة) بالكسر : على أنها بدل من (نورين) ، و(خواتيم) بالكسر كذلك ، وهي وإن كانت ممنوعة من الصرف على وزن مفاعيل إلا أنها هنا مضافة فيجوز كسرها .

ويجوز نصب (فاتحة) و(خواتيم) على أنها بدل من (أوتيتهما)

إذ إن قوله (أوتيتهما) التاء الثانية فيه مفعول به أول (وهما) مفعول به ثانٍ ، و(فاتحة الكتاب) بدل من (هما) ، ويجوز إبدال المظهر بالمضمر ويجوز الرفع في قوله : (فاتحة الكتاب) و(خواتيم) على الخبرية ، إلا أن رواية الحديث بالكسر ، فافهم .

واعلم أن الممنوع من الصرف يجوز جره بالكسر :

إذا كان معرَّفاً أو كان مضافاً كقولك :

[مررت بالمساجد] و [مررت بمساجد الكوفة] .

والحرف هو في اللغة : الطرف ، وقد يطلق على الجملة ، وقد يطلق على الكلمة ، وقد يطلق على الحرف الذي تتركب منه الكلمة .

والمعنى : لم تقرأ بجملة أو بكلمة من سورة الفاتحة أو خواتيم سورة البقرة إلا أجابك الله تعالى ، كما ورد في الحديث لمّا يقول العبد : { اهدنا الصراط المستقيم } يقول الله تعالى : (هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) [٣]

---

[١] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

[٢] كما في شعب الإيمان للبيهقي

[٣] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٧٥٠٢ وصحيح الإمام مسلم كتاب الصلاة عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

وهكذا في مقام الحمد والثناء والتمجيد والتفويض في أوائل سورة الفاتحة .
وكذا عند خواتيم سورة البقرة { رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ }

أي لا تحملنا ما لا طاقة به من التكاليف الشرعية .

وقد جاء في الحديث أن الله تعالى لما دعاه المؤمنون بذلك قال سبحانه :
(نعم) [١]- وهكذا إلى آخر السورة .

فما هي خواتيم سورة البقرة ؟

قد تطلق خواتيم سورة البقرة على الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة وذلك على أنهما خواتيم من حيث الكلام والجمل .

وقد تطلق خواتيم سورة البقرة على الآيات الثلاث في آخر سورة البقرة ومن أخذ بهذا القول فقد أخذ بالأحوط والأَولى .

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا تُقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان) [٢]

وهذا الكتاب هو كتاب آخر يختلف عن الكتاب الذي جاء ذكره في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
(كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء) .
وهذا هو أم الكتاب الذي أشير إليه في الحديث :

(لما خلق الله الخلق) - أي قدَر المخلوقات -

(كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي) [٣]

[١] انظر مسند الإمام أحمد ٨٩٧٦ وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[٢] انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن ومستدرك الحاكم كتاب فضائل القرآن وسنن النسائي الكبرى
[٣] كما في مسند الإمام أحمد ٧٢١٥

وفي رواية : (غلبتْ)[1] ، وفي رواية :(تغلب) [2] .

وقوله :(فهو عنده فوق العرش) فكما أنه سبحانه استوى على العرش باسمه الرحمن فلقد أحاطت رحمانيته سبحانه بعرشه ، ورحمته وسعت كل شيء ، فما أرحمه سبحانه ! هو أرحم الراحمين .

وإن البحث في خصائص السور وفضائلها والاطلاع على بعض أسرارها هو من جملة الأصول العلمية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى :{ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }

وإن من جملة علوم القرآن : العلم بخصائص وفضائل السور والآيات ، وفي هذا قال صلى الله عليه وسلم لأبي سعيد بن المعلى :

(لأُعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن) [3]

- وهي سورة الفاتحة كما ورد في تتمة الحديث -

فقال له : (لأُعَلِّمَنَّكَ) فالعلم بخصائص السور والآيات وفضائلها هو علم بَحَثَ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيّنه وعلّمه .

قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ }

تدل الآية على أن من كان مؤمناً فإن إيمانه يوجب عليه أن يستجيب لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولم يقل سبحانه (إذا دعواكم) ليبيّن سبحانه أن الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي دعوة الله سبحانه .

---

[1] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

[2] صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب التوبة .

[3] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن .

وتدل الآية على أنه من الواجب على المؤمن أن يستجيب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به لأن فيه حياته - أي : حياة قلبه وروحه - وحياته الأبدية الطيبة في الدنيا وفي الآخرة ، ولا غنى للإنسان عن الحياة ، فكما يسعى إلى الطعام والشراب لبقاء حياته الجسمية فالأولى به أن يسعى إلى حياة قلبه وروحه حياة الأبد وذلك باستجابته لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وما دامت حياة الإنسان الأبدية لا تُنال إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب عليه أن يُحْكِم صلته برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يكون ارتباطه بجنابه الشريف وثيقاً ، وذلك بمحبته وتعظيمه وكثرة الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم والعمل بآدابه والتخلق بأخلاقه صلى الله عليه وسلم وهكذا ، فكما أن الجسم متعشق بالروح التي تحييه ، فعلى المؤمن أن يتعشق بمن فيه حياة روحه وقلبه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن معاني القرآن العظيم لا تنفد ، ولا نهاية لها ، وإنما يفهم كل مؤمن منها على حسب إيمانه ومقامه في التقوى والصلاح ، وإن مفاتيح فهم المعاني القرآنية بيد الله سبحانه كما قال تعالى :{ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ }

وكما قال سيدنا علي رضي الله عنه عندما سئل :
هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟

قال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلَمُهُ إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن ... الحديث [1]

وهذا يعرف بمقام : [الإفهام والتفهيم] وهو بيد الله سبحانه .

[1] انظره في صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

ولا تقل : إن البحث في علوم القرآن وبيان معانيه هو أمر من مهمة العلماء فقط ، فإن القرآن نزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبلّغه الناس كافة ، ولم يكن صلى الله عليه وآله وسلم يتلوه على طائفة من الصحابة فقط ، بل الواجب على كل مؤمن أن يتفهم بعض معاني القرآن ولو إجمالاً .

ويقول سبحانه :{ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا *}

فوصف سبحانه القرآن بأنه ثقيل وليس هذا من باب المجاز والتشبيه فكما أن القرآن عظيم - وعظمة كل شيء على حسبه ، ولا تفهم من العِظَم دائماً العظم الجسماني - كذلك فإن القرآن ثقيل في كثرة ووفرة معانيه ، ولا يمكن للإنسان أن يحملها كلها ، وإنما كُلٌّ على حسبه ، ولقد أفاض الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأعدَّه وأمدَّه حتى كان صلى الله عليه وسلم أعلم خلق الله بالله ، وأعلمهم بكلامه سبحانه ، ولا يزال صلى الله عليه وآله وسلم في الترقي ، ولو أن معنى من معاني القرآن وسراً من أسراره نزل على صُمِّ الجبال لتصدعَت ، فتفكّر في عظمة القلب المحمدي الذي نزل عليه القرآن !!

قال تعالى :{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ } أي من بين سائر القلوب .

وإن في هذا القرآن ومعانيه وأسراره قوة تُسَيَّرُ بها الجبال وتُقطّع بها الأرض وتُكلّم بها الموتى ، قال تعالى :

{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى } أي لكان هذا القرآن .

وقوله تعالى : { قَوْلًا ثَقِيلًا } أي في إلقائه أيضاً ، فلا يمكن لأحد أن يحتمل تلقّيه عن الله تعالى إلا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لمّا كان ينزل الوحي القرآني عليه صلى الله عليه وسلم كان يُرى أثر ذلك عليه صلى الله عليه وسلم كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها :

(ولقد رأيته ينزل عليه الوحي) - أي القرآن -
(في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقاً) [١]
وقد نزل عليه الوحي مرة وهو على ظهر الناقة فبركت الناقة [٢].

وروى الإمام البخاري عن سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أملى عليه { لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله } قال : فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها عليّ قال : يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه و سلم وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترضّ فخذي ثم سرّي عنه فأنزل الله { غير أولي الضرر }) [٣]
ولقد فرض الله تعالى قيام الليل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أمته في أول الأمر ثم نُسِخَتْ فرضيته على الأمة وبقي بحقه صلى الله عليه وآله وسلم فرضاً ، ونُسِخَ عن الأمة بالصلوات الخمس وبقي على وجه السنة والتقرب إلى الله تعالى . [٤]

---

[١] صحيح البخاري كتاب بدء الوحي .
[٢] روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال :
أُنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها .
وروى الطبراني في المعجم الكبير عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ ، قَالَتْ :
إِنِّي لآخِذَةٌ بِزِمَامِ الْعَضْبَاءِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْمَائِدَةُ فَكَادَتْ مِنْ ثِقَلِهَا تَدُقُّ عُنُقَ النَّاقَةِ .
[٣] صحيح البخاري كتاب التفسير .
[٤] جاء في صحيح مسلم أن سعد بن هشام بن عامر قال للسيدة عائشة رضي الله عنها : يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقالت : ألست تقرأ { يا أيها المزمل } ؟
قلت : بلى ، قالت : فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حَوْلاً - أي : سنة - ، وأمسك الله خاتمتها اثني

{ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ } أي ما تنشئه من الطاعات في الليل { هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا } أي أشد ثقلاً على النفس مما تنشئه في النهار من طاعات { وَأَقْوَمُ قِيلًا } لأن القلب حاضر مع ما يقوله اللسان ولا شواغل تشغله كما تشغله في النهار ، فقد أعطاك الله تعالى قوة الإنشاء فقم وأنشئ الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة .

وكان صلى الله عليه وسلم يحرِّض على قيام الليل حتى قال :

(عليكم بقيام الليل ولو ركعة واحدة) [١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟) [٢] - وهذا الحديث متواتر لأنه جاء من عدة طرق عن عدة من الصحابة في جميع كتب الحديث - .

عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة .

و قال القرطبي في تفسيره :

قال القشيري أبو نصر: والمشهور أن نسخ قيام الليل كان في حق الأمّة، وبقيت الفريضة في حق النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال البغوي في تفسيره :

كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقومون على هذه المقادير، وكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى نصف الليل ومتى الثلثان، فكان الرجل يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدرَ الواجب، واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله وخفف عنهم ونسخها بقوله جل وعلا : { فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى } الآية ،فكان بين أول السورة وآخرها سَنة .

[١] كما في المعجم الأوسط للطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما وأصله في سنن الدارمي كتاب الرقاق

[٢] انظر صحيح البخاري كتاب الجمعة وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها وسنن أبي داود كتاب الصلاة وسنن الترمذي كتاب الدعوات ومسند الإمام أحمد ٧٣٠٣ وسنن الدارمي كتاب الصلاة وصحيح ابن حبان كتاب الرقائق

وفي رواية للإمام أحمد :
(إذا بقي ثلث الليل نزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا فيقول :
من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ من ذا الذي يسترزقني فأرزقه ؟ من ذا الذي يستكشف الضر فأكشفه عنه ؟
حتى ينفجر الفجر) [1]
ومن أقبل عليه الله بالعطاء فعليه أن يتوجه بالدعاء .

وورد في الحديث أن قيام الليل يرفع الدرجات ، كما روى الإمام أحمد وغيره عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : احتبس - أي تأخّر - علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج صلى الله عليه وسلم سريعاً فثوّب [2]بالصلاة ، فصلى وتجوّز - أي أسرع - في صلاته فلما سلّم صلى الله عليه وسلم قال :(كما أنتم على مصافّكم)- أي لا تفارقوا مكانكم - ثم أقبل إلينا فقال :
(إني سأحدثكم ما حَبَسَني عنكم الغداة ، إني قمت من الليل فصليت ما قدّر لي فنعست) - بفتح النون والعين [3] - (في صلاتي حتى استيقظت)
وفي رواية الترمذي : (استثقلت)

- وليس هذا من باب النعاس المفضي إلى النوم فأنّى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينام في صلاته ؟!

---

[1] المسند ٧١٩٦
[2] قال في تحفة الأحوذي : هو من التثويب أي : أقيم بها
[3] قال في تحفة الأحوذي : هو من باب نَصَرَ وفَتَحَ

ولكن هذا من باب الوحي والتجلي الخاص عليه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : (حتى استيقظت) ، وقوله : (حتى استثقلت)- (فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة [١] ، فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري يارب ، فأعادها ثلاثاً ، فرأيته وضع كفه بين كتفيّ حتى وجدت برد أنامله بين صدري [٢] ، فتجلّى لي كل شيئ ، وعرفت)

وفي رواية : (فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثدييّ فعلمت ما في السموات وما في الأرض) [٣]

أي فظهر لي كل شيء حتى العرش وعرفت كل شيء مما أفاض الله علي - (فقال : يامحمد فيم يختصم الملأ الأعلى[٤] ؟ قلت: في الكفارات والدرجات

قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات .

قال : وما الدرجات ؟

قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام[٥] ،

---

[١] قال ابن الأثير في جامع الأصول : الصورة تَرِدُ في كلام العرب على ظاهرها ، وعلى معنى حقيقة الشيئ وهيئته ، وعلى معنى صفته ، يقال : صورة الفعل كذا وكذا لصفته ، فيكون المراد بما جاء في الحديث : إنه سبحانه أتاه في أحسن صفة ، ويجوز المعنى إلى النبي صلى الله عليه وسلم : أي أتاني ربي وأنا في أحسن صورة . اهـ
قال سيدنا الشيخ الإمام : ومما يؤيّد أن الصورة قد يراد بها الصفة قوله صلى الله عليه وسلم : (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر)
أي على صفته في النور والإضاءة ، وليس المراد هيئته المستديرة .

[٢] في هذا رموز وإيماءات إلى إفاضات وتجليات فيها انكشافات ومشاهدات وعلوم واطلاعات ، فسبحان من تنزَّهَ عن الكميات والكيفيات ! .

[٣] المسند ٣٣٠٤

[٤] قال ابن الأثير : الملأ هم أشراف الناس وسادتهم ، وأراد هنا بالملأ الأعلى : الملائكة المقربين . اهـ

[٥] فاختصام الملأ الأعلى هو التقاول الذي يجري بينهم في شأن الكفارات والدرجات من الأعمال والأقوال على اختلاف أنواعها ، فيتباحثون في الدرجات واستحقاقاتها ومقتضياتها وأيها أحب إلى الله تعالى ، وأيها أعظم درجة وأكثر ثواباً ، وفي

ثم قال سبحانه : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات)

وفي رواية : (أسألك فعل الطيِّبات) [1]

(وترك المنكرات ، وحب المساكين) ـ أي الذين أنت تحبهم –

(وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفَّني غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (إنها حق فادرسوها وتعلَّموها) [2]

فانظر في هذا : إن الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم يسأل الله تعالى حبه والزيادة منه .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

الكفارات ومقدار ما تكفِّر من الذنوب وتقي من العقوبات ، فيجري بينهم التقاول في ذلك ثم يُرفع الأمر إلى رب العزة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين فيحكم حكمه في ذلك ولا مُعقِّب لحكمه جل وعلا .

[1] انظر مجمع الزوائد .
وفي مسند الإمام أحمد ١٦٠٢٦ ومصنف ابن أبي شيبة ومستدرك الحاكم :
(اللهم إني أسألك الطيّبات) .

[2] انظر المسند ٢١٠٩٣ ورواه الترمذي عن ابن عباس وقال : حسن صحيح ، وروى النسائي بعضه ، والحاكم وقال : على شرطهما .

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثانية

حول تفسير خواتيم سورة البقرة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فقد ورد في الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

(بينما جبريل قاعد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه) - أي سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتاً من فوقه ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع ما لا يسمع غيره ويرى ما لا يرى غيره كما قال عليه الصلاة والسلام : (إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون) [1] ، وهذا الصوت من السماء - ،(فرفع رأسه فقال) - أي : جبريل عليه السلام - : (هذا باب من السماء فُتح اليوم ، لم يُفتح قَطُّ إلا اليوم فنزل منه ملك) - وقد رآه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يرى ما لا يرى غيره - (فقال) - أي : جبريل عليه السلام - (هذا ملَك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلَّم) - أي الملك - (وقال : أبشر) - أي جئتك ببشارة من عند الله يا رسول الله -

(بنورين أوتيتَهما لم يؤتَهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ) - وفي رواية النسائي وغيره : (لم تقرأ) [2]-

(بحرف منهما إلا أعطيته). [3]

وفي رواية : (إلا أُوتيته) .[1]

---

[1] سنن ابن ماجه كتاب الزهد عن أبي ذر رضي الله عنه .
[2] انظر السنن الكبرى للنسائي ومستدرك الحاكم كتاب فضائل القرآن
[3] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصْرها .

وقوله : (أوتيتهما) أي أنت يا رسول الله ، وأُمّتك تابعة لك .

إن الذي نزل بالسورة هو جبريل عليه السلام وأما الملك الذي لم ينزل إلى الأرض إلا ذلك اليوم فقد نزل لبيان بعض خصائص هذه السورة .

والمراد بالحرف في هذا الحديث : [الجملة] ، وهي في اللغة : الطرف ، أي : لم تقرأ بجملة منهما إلا أعطاك الله ، فإذا قلت :

{ الحمد لله رب العالمين } قَبِل الله حمدك وأجابك بقوله :(حمدني عبدي) ، حتى إذا قلت : { اهدنا الصراط المستقيم } قال الله تعالى :

(هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل) [٢]

وقوله : (لم تقرأ بحرف) ولم يقل : لم تقرأ حرفاً ، مع أنه لو قال هذا لصحَّ المعنى ، إنما أتى بالباء في قوله (بحرف) أي متلبساً حالة الدعاء بنية معينة في قراءتك ، يعني لم تقرأ بحرف منهما متوجهاً إلا أجابك الله تعالى .

ويحتمل أن تكون الباء للاستعانة ، والمعنى : لم تقرأ بحرف مستعيناً على قضاء حوائجك إلا أُعطيته ، ولهذا كانت سورة الفاتحة تُقرأ لقضاء الحوائج ، وتُهدى للأموات وهكذا ..

ولا تقل إن قراءتها على نية كذا كتيسير أمر أو تفريج كرب هي بدعة ،

فإن سيدنا أبا سعيد الخدري رضي الله عنه لما رقى بها اللديغ لم يكن يعلم أنها سورة الشفاء بل كان يعلم أنها سورة إجابة ، فقرأها على اللديغ فشفاه الله ، ثم لما رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له صلى الله عليه وسلم : (وما يدريك أنها رُقْية) ؟

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

(قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً) [١]

---

[١] كما في شعب الإيمان للبيهقي

[٢] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فأقرَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء بها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه للاستشفاء ، فإذا جئت بها لقضاء الحوائج فأي مانع ؟ وإذا جئت بها قربة إلى الله ووهبت ثوابها للأموات فأي مانع ؟

فقد شرع تعالى صلاة الحاجة وفيها الركوع والسجود وقراءة الفاتحة وغيرها من القرآن ، والمقصود أن تُقضى تلك الحاجة التي صليت ودعوت من أجلها ، ومن جملة ما قرأت سورة الفاتحة فلو قرأت سورة الفاتحة خارج الصلاة خاصة لقضاء الحاجة فما المانع ؟!

كما أن سورة الفاتحة تُقرأ للحفظ فقد روى الديلمي عن عمران بن الحصين رضي الله عنه مرفوعاً :

(فاتحة الكتاب وآية الكرسي لا يقرؤهما عبد في دار فتصيبهم ذلك اليوم عين إنس أو جنّ) [٢]

فسورة الفاتحة تُقرأ لعدة أمور هامة ، فما الحرج في قراءتها لأي حاجة كانت ؟ !

ولا تقل : إن هذا لم يَرِدْ ، فإن ذلك يدخل تحت الأصل العام وهو مشروعية قراءتها لقضاء الحاجة وغيرها لأنها سورة إجابة بدليل قوله :

(لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)

---

[١] انظر صحيح البخاري كتاب الإجارة .
وروى الإمام أحمد في مسنده ١١٠٦٤ واللفظ له عن أبي سعيد الخدري قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً فكنت فيهم فأتينا على قرية فاستطعمنا أهلها فأبوا أن يطعمونا شيئاً فجاءنا رجل من أهل القرية فقال : يا معشر العرب فيكم رجل يرقي ؟ فقال أبو سعيد : قلت : وما ذاك ؟ قال : ملك القرية يموت ، قال : فانطلقنا معه فرقيته بفاتحة الكتاب فرددتها عليه مراراً فعوفي ، فبعث إلينا بطعام وبغنم تُساق فقال أصحابي : لم يعهد إلينا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا بشيء ، لا نأخذ منه شيئاً حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فسُقنا الغنم حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فحدثناه فقال : كُلْ وأطعمنا معك ، وما يدريك أنها رقية ؟
قال : قلت : ألقي في روعي - أي في قلبي - .

[٢] عزاه الحافظ المناوي في فيض القدير للديلمي في الفردوس وانظر كتاب [حول تفسير سورة الفاتحة] صفحة ٢٢٤ لشيخنا الإمام رضي الله عنه

وكذلك فإن خواتيم سورة البقرة (الآيات الثلاث الأخيرة) فيها الإجابة أيضاً لأن الله تعالى تكفل لمن دعا بها بالإجابة .

أما الكلام على تفسير خواتيم سورة البقرة :

فقوله تعالى :{ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } أي أن السماوات وما فيها والأرض وما فيها هي ملك لله ، وهي له خلقاً فهو خالقها وملكها .
{وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ }

فما المناسبة في ذكر ذلك ؟

نعم ، ما دام أن السماوت والأرض وما فيهما هي له سبحانه خلقاً وملكاً ومِلكاً ألا يعلمها ويعلم ما فيها ؟

قال تعالى :{ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ } فهو سبحانه يعلم خبايا السماوت وخبايا الأرض وما فيهما من كبير أو صغير ، وأنت أيها الإنسان من جملة ما في الأرض ، فأنت إذاً لله تعالى وأنت من مخلوقاته ، وهو المالك لك والملك عليك - أي : المتصرف فيك والمدبِّر لك - فهو سبحانه يعلم إذاً كل ما يجول في نفسك ويخطر على بالك

{ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ } تُظهروه

{ أَوْ تُخْفُوهُ } يعلمه فـ { يحاسبكم به الله }

فقوله سبحانه وتعالى :{ يُحَاسِبْكُمْ } يدل على علمه جل وعلا به ، وإن نتيجة الحساب أن يغفر سبحانه لمن يشاء ويعذّب من يشاء ، وهذا لمن مات وعليه ذنوب لم يتب منها فأمره تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذّبه .

وإن المقصود من هذه الآية أن تأخذ حذرك أيها الإنسان وتعمل بموجب ما تدل عليه هذه الآية ، فلما عرَّفك سبحانه أنه يعلم خفاياك فإياك أن تضمر في نفسك ما لا يرضاه الله تعالى ، وإن كان في نفسك شيء من ذلك فبادر بالتوبة إلى الله قبل أن تموت ، وإلا فإن الأمر خطير .

وإذا قلت : وهل هو سبحانه قادر على حساب كل العباد ويحضر لهم أعمالهم وخفايا قلوبهم ؟

فيقال : نعم ، فقد قال سبحانه :{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

وقال تعالى :{ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ }

أي وإن كان عملك وخفايا نفسك مثقال حبة من خردل أتينا بها بقدرتنا للحساب .

وقال تعالى : { إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله } - أي للحساب - .

واعلم أن المحاسبة لا تكون على كل ما مرَّ على القلب ، فهناك الهاجس الذي يهجس في النفس بسرعة كالبرق الخاطف ، فإذا تكرر كان خاطراً ، ثم إذا قوي أكثر كان حديث نفس - بين ردّ وقبول - وإن الله تعالى لا يؤاخذ على حديث النفس فضلاً منه وكرماً ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم :

(إن الله تَجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)[1]

وذلك إكراماً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وهكذا فإن الوساوس النفسية والخواطر الشيطانية التي تمر على القلب وينزعج الإنسان لها ، لا يؤاخذه الله عليها ولا تدل على نقص في إيمانه ، بل عليه أن يطردها ويتعوذ بالله من ذلك ، ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله إني أحدِّث نفسي بالشيء لأن أَخِرَّ من السماء أحب إلي من أن أتكلم به

وفي رواية : فقال : يا رسول الله إن أحدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء لأن يكون حُمَمة [1]أحب إليه من أن يتكلم به [2]

---

[1] انظره في صحيح البخاري كتاب الطلاق واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الإيمان ، كليهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة) [٣]

وروى الإمام أحمد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :
شَكَوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجدون من الوسوسة وقالوا :
يا رسول الله إنا لنجد شيئاً لو أن أحدنا خَرَّ من السماء كان أحب إليه من أن يتكلم به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ذاك محض الإيمان) [٤]

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه :
إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به
قال : (وقد وجدتموه) ؟
قالوا : نعم ، قال : (ذاك صريح الإيمان) [٥]
أي هو دليل قوة الإيمان طالما أنكم أنكرتموه وانزعجتم له ورددتموه .

وأما معنى قوله تعالى :

{ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ }

يعني من أعمال القلوب وملكات النفس الراسخة فيها ، والنيّات والهِمم والعزائم كالحب والبغض والحقد والحسد والشحناء والبغضاء وانتقاص الغير وهكذا .

فالحب مثلاً : أمَرَك الله تعالى أن تحب كل مؤمن لإيمانه ، وأن تحب الخير لكل مؤمن ، فإن حملت في نفسك غير ذلك وقعت عليك المسؤولية والحساب ، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا ، أفلا أدلُّكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أَفْشُوا السلام بينكم) [١].

---

[١] قال في عون المعبود : (حممة) بضم الحاء وفتح الميم أي : فحماً
[٢] انظر سنن أبي داود كتاب الأدب
[٣] مسند الإمام أحمد ١٩٩٣
[٤] المسند ٢٣٦٠٩
[٥] انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان

ويجب أن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف من المؤمنين ، ولا تستصغر أحداً منهم فإنه سبحانه لم يُودِع في قلب المؤمن (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) إلا لأنه يحبه ويريد كرامته .

ولو اتَّسخ جسمه بالذنوب والمعاصي فإما أن يتوب وتطهر ثيابه أو أن يتوب الله عليه ، وهكذا طالما أنه مؤمن .

ولما جيء برجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحُدّ بسبب شرب الخمر ثم انصرف قال رجل من الصحابة :

- وفي رواية : فلما انصرف قال يعني القوم : أخزاه الله

فقال صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة :

(لا تقولوا هكذا ، لا تعينوا عليه الشيطان ، ولكن قولوا : رحمك الله) [٢]

- أي : ادعوا الله أن يتوب عليه -

وروى الإمام مالك في الموطأ أنه بلغه أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يقول :

(لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية) [٣]

وجيء برجل شرب الخمر فَحُدَّ مراراً ، فقال رجل من الصحابة :

اللهم العنه ، ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(لا تلعنوه فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله) [٤]

---

[١] صحيح مسلم كتاب الإيمان وسنن أبي داود كتاب الادب واللفظ له
[٢] انظره في صحيح البخاري كتاب الحدود والسنن الكبرى للنسائي
[٣] في كتاب الجامع ومصنف ابن أبي شيبة وشعب الإيمان للبيهقي
[٤] انظر صحيح البخاري كتاب الحدود

وفي رواية : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا تلعنوه ؛ فإنه يحب الله ورسوله) [1]

وهكذا فإن دين الإسلام سِلم وسلام وأمان واطمئنان وحفظ للمراتب ، وهذا ما هدى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال :
(وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم) [2]

فإذا كان حبك للآخر شرعياً فأنت مأجور عليه ، وإلا فأنت مسؤول عنه ، وكذلك البغض ، فيجب أن تبغضه بسبب ارتكاب المعصية ، فتبغض منه هذه الصفة ، ولا تبغضه مطلقاً ، لأنه مؤمن .

وكذلك النية فإذا نويت خيراً أُجِرت عليها ، وإن نويت شراً عوقبت عليها ، ففي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لما رجع من غزوة تبوك :

(إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة حَبَسَهم العذر) [3].

وجاء في الحديث :

(إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً)

- أي : علم الحلال والحرام وليس علم العلماء –

(فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول) - أي ينوي – (لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيّته فأجرهما سواء .

[1] كما في مسند أبي يعلى الموصلي ومسند البزار
[2] طرف حديث في المسند ١٤٤٥٥ وصحيح مسلم كتاب الجمعة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه
[3] كما في صحيح البخاري كتاب المغازي عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان) - أي : في المعصية - (فهو بنيّته فوِزرهما سواء) . [١]

وما أحسن قول القائل :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل [٢]

قوله تعالى : { فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ } :

هذا لمن لم يتب ، وأما من تاب تاب الله عليه ، وقد قدَّم ذكر المغفرة لكي تسعى في طلبها من الله تعالى .

{ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }أي قدير على إظهار الخفايا النفسية والضمائر القلبية والمحاسبة عليها ، كما أنه سبحانه قدير على المغفرة ، وقدير على التعذيب ، ولابد للمغفرة من قدرة إذ إن الغفر هو الستر ،
فالذنب يصدر من الإنسان له ظلمة قد تكون أشد من ظلمة الليل إن كثرت الذنوب ، فمن يقدر على إزاحة ظلم الليل ؟ !!

ولولا أن الله يأتي بنور الشمس لَمَا قَدر أحد على إزالة ظلمة الليل ، وكذلك الذنوب لا يستطيع أحد أن يزيل ظلماتها إلا نور مغفرة الله تعالى ولذلك قال سبحانه :{ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ } أي من يقدر على ذلك وعلى إزالة الظلمات من كتاب المذنب وجسمه وقلبه ومما حوله إلا الله ؟

وقد كان صلى الله عليه وسلم يرى أثر الذنب وظلماته في الإنسان وكذلك أصحابه رضي الله عنهم لِلطافتهم ، فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يدخل عليه رجل - وكان في طريقه قد وقع بصره على امرأة أجنبية - فلما دخل على عثمان قال له عثمان رضي الله عنه :

أيدخل عَلَيَّ أحدكم وفي عينيه أثر الزنا ؟ !

---

[١] انظره في سنن الترمذي كتاب الزهد
[٢] هو من شعر أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد المتوفى سنة ٢١١ هـ رحمه الله .

فقال له الرجل: أَوَحْيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قال: لا ، ولكن قول حق وفراسة صدق [1].

إشارة إلى الحديث :

(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[2] .

ولما نزل قوله تعالى : { لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير }
فَهِمَ بعض الصحابة أن الأمر عام يشمل الهواجس والخواطر ، فاشتد ذلك عليهم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الرُّكَب فقالوا :
أيْ رسولَ الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها
- أي : لا طاقة لنا ولا قوة لنا على التحقق بها -
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يعلم أن الآية لا تشمل ذلك لكنه أراد من الصحابة أن يكون موقفهم مع آيات الله موقف الاستسلام -
قال للصحابة رضي الله عنهم :
(أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟
بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير
فقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير
فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم [3]فأنزل الله في إثرها
{ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله } أي من حيث الرسالة فنؤمن أنهم كلهم رسل الله ولا ننكر رسالة أحد كما أنكر اليهود رسالة عيسى عليه السلام .

---

[1] عزاه المحب الطبري في الرياض النضرة للملاء في سيرته وذكره المناوي في فيض القدير

[2] انظر سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

[3] أي ردَّدوها وسهلت قراءتها عليهم ، قال في لسان العرب :
والذِّل بالكسر : اللين وهو ضد الصعوبة ، وذلت القوافي للشاعر إذا سهلت

{ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير }
فلما فعلوا ذلك نَسَخَها الله تعالى فأنزل الله عز وجل :
{ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا }
قال جل وعلا : (نعم) - أي قال الله تعالى للمؤمنين : (أَجَبْتُكُمْ) -
{ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا }
قال سبحانه : (نعم)
{ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به }
قال تبارك وتعالى : (نعم)
{ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين }
قال جلَّ شأنه : (نعم) [١]

وهذا تعليم من الله تعالى لعباده كيف يدعونه .

قوله تعالى : { وَاعْفُ عَنَّا } ، العفو : هو عدم المعاقبة على الذنب ، { وَاغْفِرْ لَنَا } المغفرة : الستر ، أي : يا ربِّ لا تقابلني بالذنب ولا تفضحني به أمام غيري ، لأن هناك من بني البشر من يعفو ولا يغفر ، فتراه لا يعاقب من أساء إليه وظلمه لكنه يتناوله بالذكر والفضيحة في مجالسه ، وهذا أمر مذموم .

وروى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إن الله يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أيْ رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) [٢]

{ وَارْحَمْنَا } وجِّه إلينا رحمتك بالخير والفضل ، فلا تعاقبنا واسترنا واجلب الخير لنا .

---

[١] كما في صحيح مسلم كتاب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه
[٢] انظر صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب وصحيح مسلم كتاب التوبة

وإن الله تعالى واسع المغفرة ، ففي الحديث القدسي :

(يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أُبالي)[1]

وروى الحاكم والبيهقي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال :

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : واذنوباه واذنوباه ، - أي هلكت من كثرة ذنوبي - قال هذا القول مرتين أو ثلاثاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(قل : اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي) ، فقالها ، ثم قال : (عُد) فعاد ثم قال : (عد) فعاد ، فقال :

(قم فقد غفر الله لك) [2]

ولا يستغني أحد - مهما علا في مقام الإيمان - لا يستغني عن مغفرة الله تعالى .

ولَكَ في صدّيق هذه الأمة رضي الله عنه عِظة وعبرة إذ علَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء يدعو به في صلاته - وهي أقرب أحواله إلى الله علّمه أن يقول :

(اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)[3].

وأين أنت من الصديق رضي الله عنه ؟!

فأكثر من الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى لأنه سبحانه أطمعك في مغفرته ودعاك إليها .

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات عن أنس بن مالك رضي الله عنه
[2] كما في مستدرك الحاكم كتاب المناسك وشعب الإيمان للبيهقي
[3] صحيح البخاري كتاب الأذان .

وكلما تقرَّبت من النور وعلا مقامك ظهر لك من صغائر الذنوب ما لم تكن تعرفه فتبادر إلى الاستغفار والتوبة وهكذا ..

والقلب كالبيت ، إذ كلما قوي النور في البيت أظهر دقائق الأمور ،
وكلما قوي نور الإيمان في القلب أظهر خفايا الذنوب بالنسبة لمقام المؤمن فينبغي الاستغفار منها .

وما النور إلا من إشراقات أنوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى :{ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ }

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثالثة

حول تفسير خواتيم سورة البقرة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

تقدم في الحديث قول الملك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(أبشر بنورين أوتيتَهما لم يُؤتَهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ - وفي رواية النسائي وغيره : لم تقرأ [١]- بحرف منهما إلا أعطيته). [٢] وفي رواية : (أوتيتَه)[٣]

إن المراد من الحرف هنا المعنى اللغوي أي الجملة أو الكلمة .

وتسمى سورة الفاتحة سورة الإجابة والعطاء لأن الله تعالى تكفَّل لقارئها أن يجيبه ويعطيه ما سأل ، بدليل ما ورد في الحديث المتقدم :

(لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيتَه) .

وروى الشيخان عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(من قرأ آيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتَاه) [٤]

---

[١] انظر السنن الكبرى للنسائي ومستدرك الحاكم كتاب فضائل القرآن
[٢] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها .
[٣] كما في شعب الإيمان للبيهقي
[٤] انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

أي : كَفَتَاه وحشة الأفكار وضيق الصدر ، وقيل : كفتاه في الأجر والثواب عن قيام الليل ، وقيل : كفتاه الهموم ، وقيل : كفتاه ضيق العيش .

وقال بعض المحققين : كفتاه ما يهمُّه ، فيشمل ذلك كله ـ أي اقرأ وانْوِ ما تريد والله يعطيك ما تريد ، لأن الحديث جاء مطلقاً فلا تقيِّده وإنما حالُك يدل على مرادك .

قوله تعالى : { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } أي له مُلكاً ومِلكاً أي تصرفاً وتدبيراً ، وهي ملك له سبحانه ، فهو الملك فيها وهو المالك لها سبحانه ، وإن الإنسان من جملة ما في الأرض ، فالذي خلقه وهو مَلِكُهُ ومالكه ألا يعلم ما في نفسه ؟ !

قال سبحانه : { وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ }
أي يعلم ذلك ويحاسبكم عليه يوم القيامة .

قوله تعالى :{ إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ } أي إن تظهروه أو تكتموه يعلمه الله فيحاسبكم ، فما هو المراد بذلك ؟

المراد منه : الأعمال القلبية والمَلَكات النفسية المستقرة في النفوس ، فإذا كانت ذميمة ومنهياً عنها شرعاً فإن صاحبها يؤاخذ عليها ، وأما الوساوس والهواجس والخواطر وأحاديث النفس وما يخطر على القلب من أمور محرَّمة والقلب ينكرها فلا مؤاخذة عليها بدليل تمام الآيات
{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا }

والحديث :

(إن الله تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به)[1]

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والأصل في كلمة الخطر والخطور ـ بضم الخاء ـ الدلالة على السرعة ، ومنه قولك : (جاءنا خُطَّار) أي جاؤوا ولم يدخلوا بل سلَّموا وسألوا مرادهم ومضَوا ، أما إذا دخلوا فيقال عنهم : (إنهم ضيوف) وذلك إذا جلسوا فترة من الزمن ، وأما إذا أطالوا وأثقلوا فما عادوا خطاراً ولا ضيوفاً بل صاروا أحجاراً ، فالخاطر ما يمر سريعاً [١] .

فالنيات المذمومة التي عقد صاحبها قلبه على فعلها هو مسؤول عنها ومؤاخذ عليها ، وكذا الحب غير الشرعي والبغض والحقد والحسد والغل والشحناء ، فإن أبديت ذلك أو أخفيته فإن الله يحاسبك عليه ، وبعد المحاسبة إما أن يغفر لك وإما أن يعذبك .

والحساب قد يكون سريعاً وهو العرض [الحساب اليسير] وهو الذي لا يعذّب به صاحبه ، وقد يكون الحساب مع التدقيق والمناقشة وهذا موجب العذاب كما في الحديث : (من نُوقِش الحساب عُذِّب)[٢] الحديث

وأما الكلام عن تقوى القلوب وآثام القلوب :

فإن تعظيم وتوقير شعائر الله وهي معالم دينه وشريعته كالمساجد والمصاحف والعلماء هو أمر واجب ، ومن متطلبات تقوى القلوب ما جاء في قوله تعالى : { وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } .

وكتمان الحق عند طلب بيان الحق أمر من آثام القلوب ، قال تعالى : { وَمَنْ يَكْتُمْهَا } أي : الشهادة

{ فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ } أي من إظهار شهادة الحق أو كتمانها إذا كان ذلك موقوفاً عليك ، وهذا من جملة مفهوم الآية فمن نظر نظرة احتقار واستصغار إلى شعائر الله فقد كفر ، ومن قصَّر في تعظيمها وتوقيرها فقد ارتكب إثماً كبيراً .

---

[١] قال في لسان العرب : الخاطر ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر ، يقال : خطر ببالي وعلى بالي كذا وكذا يخطر خطوراً إذا وقع ذلك في بالك ووهمك

[٢] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها

فلا يكفي في المؤمن تقوى القوالب - أي الظواهر - بل لابد له من تقوى القلوب ، كما علَّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وليس المراد تعليم سيدنا عمر رضي الله عنه خاصة بل الأمة كلها ، علَّمه أن يقول :
(اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي ، واجعل علانيتي صالحة ، اللهم إني أسألك من صالح ما تؤتي الناس من المال والأهل والولد غير الضال ولا المضل) [١]

وإن الغل والحقد يمنع صاحبه عن مغفرة الله وعن قبول عمله ففي الحديث

الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(تُعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين)

وفي رواية : (تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس)[٢]

(فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيُقال : اتركوا هذين حتى يصطلحا)

وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس ، فمن مستغفر أغفر له ، ومن تائب فأتوب عليه ، ويردُّ أهل الضغائن) - أي الحقد والبغض - (حتى يتوبوا) [٣]

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(تُنسخ دواوين) - جمع ديوان وهو الكتاب الكبير -

(أهل الأرض في دواوين أهل السماء) - وهي دواوين الأعمال -

---

[١] انظر سنن الترمذي كتاب الدعوات
[٢] انظر صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[٣] قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات

(في كل اثنين وخميس ، فيغفر لكل مسلم لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً بينه وبين أخيه شحناء) [1]

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء عن الحسن رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن بُدَلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاة) - أي نوافل - (ولا صوم ولا صدقة ، ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور)[2]
وفي الحديث لما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك الرجل أنه من أهل الجنة - وهو سعد بن مالك رضي الله عنه - ، وتبعه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فبات عنده ثلاث ليال ولم ير من عمله الكثير سوى قيام الليل قبل السحر وصلاة اثنتي عشرة ركعة باثنتي عشرة سورة من المفصَّل ليس من طواله ولا من قصاره يدعو في كل ركعتين بعد التشهد بثلاث دعوات يقول :
اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار
اللهم اكفنا ما أهمَّنا من أمر آخرتنا ودنيانا
اللهم إنا نسألك من الخير كله ونعوذ بك من الشر كله

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما :

فلما مضت الثلاث الليالي وكدت أن أحتقر - أي : أستصغر - عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول لك ثلاث مرات : (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة) فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك فأنظر ما عملك فأقتدي بك فلم أرك عملت كبيرعمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟
قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما ولَّيت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك [3]

---

[1] قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات
[2] وأخرجه البيهقي في الشعب وأبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق و الخرائطي في مكارم الأخلاق والدارقطني في المستجاد وعزاه في كنز العمال للطبراني

[3] قال الحافظ المنذري في الترغيب : رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم والنسائي ، ورواته احتجا بهم أيضاً إلا شيخه سويد بن نصر وهو ثقة ، وأبو يعلى

وقد وصف سبحانه المؤمنين بأنهم لا يحملون غِلاً لأن هذا ليس من صفة المؤمنين فقال سبحانه :

{ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }

أي نتوسل إليك برأفتك ورحمتك أن تحقق لنا ذلك بأن لا تجعل في قلوبنا غلاً - وجاءت { غِلًّا } في الآية مُنكَّرة بعد نفي لتدل على التقليل والتصغير أي : ولا تجعل في قلوبنا أدنى غل .

وقال تعالى في صفة المؤمنين :{ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } ولم يقل أذلة للمؤمنين ، وفي هذا تضمين لمعنى فعل آخر وهو العطف والرحمة ، أي أذلة لهم عاطفين عليهم ومشفقين .

اللهم استرنا على وجه الأرض ، اللهم ارحمنا في بطن الأرض ، اللهم اغفر لنا يوم العرض ، اللهم اسقنا من كف صاحب الحوض ، اللهم أدخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جنة عرضها السماوات والأرض . آمين

قوله تعالى :

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }

والبزار بنحوه وسمى الرجل المبهم سعداً وقال في آخره : فقال سعد : ما هو إلا ما رأيت يا ابن أخي إلا أني لم أبت ضاغناً - أي : حاقداً - على مسلم . اهـ
ثم عزا الحافظ المنذري قوله في الحديث : فلما مضت الثلاث الليالي ....
عزاه إلى البيهقي

لما نزل قوله تعالى :{ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ } شق ذلك على الصحابة الكرام فبيّن صلى الله عليه وسلم أنه ليس المراد منه الخواطر وحديث النفس ، وبيّن معنى قوله تعالى :

{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } أي لا يكلفها ما لا تطيق ، فقال للصحابة رضي الله عنهم :

أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟!

بل قولوا : (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)
فقالوا : (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)
فلما اقترأها القوم ذَلَّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها:
{ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله } [1]

وفي هذه الآية يُلَقِّن الله تعالى عباده عقيدتهم .

وقد دخل الإيمان بالقضاء والقدر تحت قوله سبحانه :{ وَكُتُبِهِ }

ودخل الإيمان بالآخرة في قوله تعالى :{ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ }

ومعنى :{ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ } أي في الإيمان أنهم أنبياء ورسل ، لا في الفضل لأن الله تعالى يقول :

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ }

{ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ }

[1] تقدم تخريجه ص ٢٦

قوله تعالى :{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ }

أي تَبَعاً له تصديقاً وعملاً وقولاً ، ولم يكن إيمان المؤمنين بالله عن عاطفة واندفاع دون علم وتعقل ، بل تعقَّلوا وتفهَّموا وظهر لهم الحق فلم يسعهم إلا أن يؤمنوا فآمنوا ، لأن الإيمان لا يكون إلا عن علم ، كما قال تعالى مخبراً عن قوم صالح الذين لم يؤمنوا به في خطابهم لمن آمن به عليه السلام :

{ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ }

يعني هل علمتم أن صالحاً مرسل من ربه علم يقين حتى آمنتم ؟

{ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ } أي علمنا وجزمنا فآمنا .

وبعد أن ذكر سبحانه صفة أهل الإيمان بقوله :

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ } وبيَّن أن هذا اعتقادهم وديدنهم ، بعد هذا ذكر سبحانه موقفهم مع أحكام الله تعالى والأوامر والمناهي فقال جل وعلا :{ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } أي سمعنا لما أمرنا الله

{ وَأَطَعْنَا } أي قَبِلنا ، فما جاءنا من أوامر الله ائتمرنا بها وما جاءنا من مناهٍ انتهينا عنها .

وهذا شأن المؤمن أن يستسلم لأوامر الله تعالى سواء أدرك الحكمة منها أم لم يدرك ، لأن الذي شرعها هو الله الحكيم العليم بالحكمة المطلقة والعلم الذي لا يتناهى .

وكما يستسلم المرء لطبيب إذا أيقن بعلمه وحكمته فيما يأمره من علاج دون أن يفهم سر الدواء وتركيزه وتأثيره فيجب عليه أن يستسلم الاستسلام المطلق لما جاءه عن ربه سبحانه - ولله المثل الأعلى - لأنه هو الحكيم العليم ، وما شرع لعباده إلا ما فيه سعادة دنياهم وآخرتهم قال تعالى في بيان موقف المؤمنين تجاه شرعه :{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... } الآية .

فيجب أن يعتقد المؤمن أن أحكام الله تعالى مُحْكمة أي مبنية على حكم عالية وقد يدرك المؤمن بعضاً منها وقد يخفى عليه الآخر إلا أن عليه التسليم والإذعان ، قال تعالى :{ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }.

فالعلم الجازم القاطع - وهو ما جاءك عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم - يلزمك أن تتبعه إذا كنت عاقلاً مؤمناً ، وأما المنافق المرتاب فتراه يذعن إلى الحق إن وافق هواه ويعرض عنه إن خالفه .

فقوله تعالى :

{ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } أي نسألك مغفرتك ونسألك أن تحسن مصيرنا إليك وأن تحسن منقلبنا ومرجعنا إليك وتحسن عرضنا يوم نُعرض عليك .

فقوله تعالى :{ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } أي لها ما كسبته من فعل الخير ، وعليها ما اكتسبته من فعل الشر ، وهذا يدل على ثبوت اختيار الإنسان في أفعاله .

وذلك لأن الخير منسجم مع طبع النفس التي طبعها الله عليها ولذلك قال سبحانه وتعالى :{ لَهَا مَا كَسَبَتْ }

وأما فعل الشر ففيه كلفة ومشقة على النفس وينافي فطرة الإنسان السليمة ولذلك قال تعالى :{ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } ومن هنا نرى أن الإنسان لما يُقْدم على معصية الله لأول مرة تراه يُجرِّئ نفسه مرة بعد مرة ولا يلتفت لواعظ الله في قلبه الذي ينهاه عن فعل المعصية فيُقْدم عليها بتكلف منه .

فقوله تعالى :{ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا } في هذا تعليم من الله تعالى لعباده أن يدعوه ، وجاء ذكر الأهم فالأهم من باب الترقي .

{ وَاعْفُ عَنَّا } : أي لا تعاقبنا على ذنوبنا وتقصيرنا .

{ وَاغْفِرْ لَنَا } أي استرنا ولا تفضحنا

{ وَارْحَمْنَا } : أي اجلب لنا الخير .

فعلَّمهم سبحانه كيف يدعونه بأن يبعد عنهم الشر ويجلب لهم الخير .

واعلم أن جميع المؤمنين محتاجون لمغفرة الله تعالى ورحمته على اختلاف مقاماتهم ، ومهما بلغ المؤمن في مقام إيمانه فلا يخلو من صغائر على حسب مقامه لأنه كلما تقرَّب من نور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كُشفت له دقائق من الصغائر فجعل يتوب منها وهكذا لأن قوة النور تظهر خفايا الأمور .

ومن هذا ما روى البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال للتابعين :
[إنكم لتعملون أعمالاً هي أَدَقُّ في أعينكم من الشَّعر إن كنا لنعدُّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات] [1] - أي : الكبائر
ومن هنا تفهم نسبة الذنوب على نسبة إيمان المؤمن ، فكان الصحابة قريبي عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان نور النبوة يكشف لهم ما لم يكشف للتابعين وغيرهم فانظر إلى الفرق بين نظر الصحابة ونظر التابعين !

وقال الحسن البصري رضي الله عنه :

[والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف، ولو رأيتموهم، لقلتم: مجانين] - أي من كثرة ذكرهم لله [2] - [ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء عند الله من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه ،

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق وهو في مسند الإمام أحمد ١٠٥٧٢
[2] كما في الحديث : (أكثِروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون)
وقد عزاه السيوطي في الجامع الكبير للإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، وأبي يعلى ، وابن السني ، وابن شاهين فى الترغيب فى الذكر ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء عن أبى سعيد رضي الله عنه

ولقد رأيت أقواماً يمشي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني، لأجعلن بعضه لله عز وجل، فيتصدق ببعضه ، وإن كان هو أحوج ممن تصدَّق به عليه] [1]

وفي الحديث القدسي قال تبارك وتعالى :
(يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديتُه فاستهدوني أهدكم)
- اللهم اهدنا فيمن هديت ، وهذه الهداية هي هداية المؤمنين -
(يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمتُه فاستطعموني أطعمكم)
- أي اطلبوا الرزق من الله تعالى -
(يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوتُه فاستكسوني أكْسُكُم)
وهذه أمور وحاجاتٌ لا غنى للإنسان عنها وهي كساء وغذاء وهداية ، ثم ذكر سبحانه أمراً هاماً أيضاً يحتاج إليه المؤمن أشد من حاجته إلى الطعام والكساء وهي المغفرة فقال سبحانه :
(يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم) [2]
وفيه وجوب طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى

وخرج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من المسجد بعد أن صلى صلاة العيد فوقف على باب المسجد والناس حوله وراح يدعو فقال :

اللهم اغفر لي وارحمني فإنك قلت { إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } وأنا أرجو الله أن أكون منهم ، فإن لم أكن من المحسنين فأنا من المؤمنين وأنت قلت : { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } فإن لم أكن من المؤمنين - أي الكمّل - فأنا من المخلطين وأنت قلت :{ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } فإن لم أكن من المخلطين ولم تنلني رحمتك ولم أكن أهلاً لمغفرتك فأنت أهل أن تنالني مغفرتك لأنك قلت :
{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } فإن لم تنلني أهليَّتك لمغفرة ذنوبي ولم تغفر لي فهذه أعظم مصيبة فأقول :(إنا لله وإنا إليه راجعون)

---

[1] رواه أبو نعيم في الحلية عن علقمة بن مرثد وأورده المزي في تهذيب الكمال والحسين بن محمد بن إبراهيم الحنائي في كتابه العاشر من الحنائيات والحسن بن علي الجوهري في حديث أبي الفضل الزهري
[2] انظر صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

وأنت قلت : { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ } الآية [1]

ولما ولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة المدينة كان يمر على الأولاد في الكتَّاب ويقول لهم : [قولوا : اللهم اغفر لأبي هريرة] ، فيقولون هذا ، فيقول :[آمين ، اللهم إن هؤلاء على الفطرة وقد دعوا لي بالمغفرة فاستجب دعاءهم] [2]

وإن من شأن المؤمن أن يكون همه الأكبر أن يغفر الله تعالى له .
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين .

---

[1] جاء في الحلية وتاريخ دمشق لابن عساكر مختصراً بلفظ :
اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني ، رحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين .

[2] انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الرابعة
حول تفسير أواخر سورة آل عمران

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

تقدم في المحاضرات السابقة قول الملك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أبشر بنورين أوتيتَهما لم يؤتَهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ) - وفي رواية النسائي وغيره : (لم تقرأ) [١]-

(بحرف منهما إلا أعطيته) [٢]

وفي رواية : (إلا أوتيته) [٣]

ولذلك يقال لسورة الفاتحة : [سورة الإجابة]
ويقال لخواتيم سورة البقرة : [آيات الإجابة] .
وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا تقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان) [٤]

وقد وردت أحاديث في فضل آخر آيتين من سورة البقرة ، ووردت أحاديث في خواتيم سورة البقرة وهي آخر ثلاث آيات منها .

---

[١] انظر السنن الكبرى للنسائي ومستدرك الحاكم كتاب فضائل القرآن
[٢] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
[٣] كما في شعب الإيمان للبيهقي
[٤] انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن ومستدرك الحاكم كتاب فضائل القرآن وسنن النسائي الكبرى

وهي قوله صلى الله عليه وسلم :
(من قرأ آيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتاه) [1]
- أي أجزأتاه عن قيام الليل أي له فضل قيام الليل .
وقال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :
أخرج مسدد عن عمر رضي الله عنه قال :
[ما كنت أرى أحداً يعقل - أي بالغاً راشداً - ينام حتى يقرأ الآيات الأواخر من سورة البقرة ، فإنهن من كنز تحت العرش] .
وأخرج الدارمي ومحمد بن نصر وابن الضريس وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال :
[ما كنت أرى أن أحداً يعقل ينام حتى يقرأ هؤلاء الآيات الثلاث من آخر سورة البقرة ، وإنهن لمن كنز تحت العرش] .
وقال الإمام النووي في الأذكار :
وروى الإمام الحافظ أبو بكر بن أبي داود بإسناده عن علي رضي الله عنه قال :
[ما كنت أرى أحداً يعقل ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة] .
إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم . اهـ [2]
وهذا يدل على مواظبة الصحابة على قراءة خواتيم سورة البقرة بعد العشاء أو قبل النوم لما فيها من خصائص في الحفظ والتحصن من الشياطين والأرواح الخبيثة ، كما كانوا يواظبون على قراءة آية الكرسي قبل النوم [3] .
واعلم أن قراءة خواتيم سورة البقرة مطلوبة بعد العشاء قبل النوم وأن خواتيم سورة آل عمران مطلوبة آخر الليل بعد النوم ، كما دلت عليه الأحاديث الشريفة .

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[2] ٢٧٣/٢

[3] روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
وكَّلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنَّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكر الحديث وفيه : فقال - أي الشيطان له - : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح .
فذكر أبو هريرة هذا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال :
(صَدَقَكَ وهو كذوب ، ذاك شيطان) .

جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
[بِتُّ عند خالتي ميمونة] - إحدى زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاهرات رضي الله عنهن جميعاً -
[فقلت : لأنظرن إلى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطرحتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم في طولها]
- وفي رواية :[فتحدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء]-
- وإذا كنت تحت السماء فانظر إلى السماء ليس بينك وبينها حجاب من سقف ونحوه -
[فجعل صلى الله عليه وسلم يمسح النوم عن وجهه]
وفي رواية : [فرفع رأسه إلى السماء فقال : (سبحان الملك القدوس) ثلاث مرات] [١]
[ثم قرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران حتى ختم ، ثم أتى شنّاً معلَّقاً فأخذه فتوضأ ، ثم قام يصلي ، فقمتُ فصنعت مثل ما صنع ثم جئت فقمت إلى جنبه فوضع يده على رأسي ثم أخذ بأذني فجعل يفتلها]
- وكان قد وقف إلى اليسار فأخذ به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمين -
[ثم صلى ركعتين ثم صلى ركعتين ثم صلى ركعتين ثم صلى ركعتين ثم صلى ركعتين ثم صلى ركعتين] - اثنتي عشرة ركعة - [ثم أوتر][٢]
وفي رواية : [ثم قام صلى الله عليه وسلم فتوضأ واستنَّ فصلى إحدى عشرة ركعة] [٣]
فكان صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ لقيام الليل قرأ خواتيم سورة آل عمران وعلى هذا درج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قوله تعالى :{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ...} إلى آخر السورة .
هذه الآية وصف الله تعالى بها عباده المقربين أولي الألباب .
فقوله تعالى :{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي مخلوقاتها أو في تخليقها يعني في إيجادها وإنشائها على المعنى المصدري .

---

[١] انظر مستدرك الحاكم كتاب معرفة الصحابة والدعاء للطبراني
[٢] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن واللفظ له وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
[٣] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

{ لَآيَاتٍ } لعلامات دالة على عظمة قدرة الخالق وعلمه وحكمته ، وهذا ما لَفَتَ إليه سبحانه بقوله :
{ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ }.
وكلما عَظُمَ وكبر البناء في نظرك عظم وكبر في نظرك الباني ، فما أعظم السموات وما فيها ، وما أعظم بانيها ؟!
كل هذا يدلك على عظمة الله تعالى في قدرته وعلمه وحكمته سبحانه .
قوله سبحانه :{ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ } أي إبل الأرض وإبل السماء ، أما إبل الأرض فهي الجمال التي تحمل الأثقال وتطوي المسافات الشاسعة وتصبر على العطش والجوع ، وأما الإبل السماوية فهي السحب .
والعرب تشبِّه السحب المليئة بالأمطار بالإبل وهذا ما قاله سبحانه :
{ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا}وهذا من حيث لونها واجتماعها إلى بعضها وما تحمله من أثقال ، قال تعالى : { وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ } .
ولا تقل إنه لا يجوز أن يراد بالكلمة الواحدة الحقيقة والمجاز في آن واحد فإن هناك ما يعرف بعموم المجاز .
فلفت سبحانه النظر من عالم الأرض إلى السحب في السماء ، ثم عاد بك إلى الجبال وعالم الأرض كيف سطحت - أي جُعلت مذللة مبسوطة للماشية عليها - ولا ينافي هذا أنها كروية الهيئة كما هو معروف عند جمهور العلماء .
والأدلة على ذلك كثيرة منها اختلاف مواعيد الشروق وغيرها .
قوله تعالى :{ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } أي تخالفهما وراء بعضهما فكل منهما يخلف الآخر ، وكذلك اختلافهما في الطول والقصر والظلمة والنور ويجدر هنا ذكر الآيات { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ }
وهناك فرق في قوله تعالى :{ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } وقوله سبحانه :{ أُولِي الْأَلْبَابِ } فكل من كان له عقل ونظر في هذا الكون يؤمن أنه لابد له من خالق بارئ مصور قوي عليم ، وهذا الاستدلال بالعالم على الخالق .
وأما أولوا الألباب فقد عقلوا وآمنوا أن هناك خالقاً بارئاً ولكنهم راحوا يبحثون عن الحكمة من وراء هذه المخلوقات وأنها لم تُخلق للعبث واللهو والباطل وأنها مسخرات للإنسان ،

وأنه لابد من يوم آخر ترجع فيه الخلائق إلى ربها فيثاب المحسن ويعاقب المسيء ولذلك قالوا كما أخبر عنهم سبحانه :{ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }

أي : يوم الرجوع إليك .

وقد وصف سبحانه أولي الألباب بالذكر فقال جل وعلا

{ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وقعوداً وعلى جنوبهم }

ووصفهم بالفكر ، فقال تبارك وتعالى

{ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ..} أي في الحكمة من خلقهما .

وأولو الألباب يذكرون الله تعالى على كل أحوالهم ، وليس المراد هنا الصلاة بدليل قوله جل وعلا :

{ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ..} الآية .

وإن ذكر الله تعالى واجب على كل مسلم ومسلمة إن هو جلس مجلساً أو مشى ممشى أو قام مقاماً أو اضطجع مضطجعاً ، وكذلك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يفعل كان لله عليه حق يطالبه به يوم القيامة ، وكان لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه حق يطالبه به يوم القيامة .

ففي الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من اضطجع مضطجعاً لم يذكر الله فيه كان عليه تِرَة يوم القيامة)

- أي حق يطالبه به يوم القيامة ، والترة هي التبعة أي المظلمة -

(ومن جلس مجلساً لم يذكر الله فيه كان عليه ترة يوم القيامة ، ومن مشى ممشى لم يذكر الله فيه كان عليه ترة يوم القيامة) [1]

وفي المسند [2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما جلس قوم مجلساً فلم يذكروا الله فيه إلا كان عليهم تِرَة ، وما من رجل مشى طريقاً فلم يذكر الله عز وجل إلا كان عليه ترة ، وما من رجل أوى إلى فراشه فلم يذكر الله إلا كان عليه ترة)

أي ليذكر العبد ربه ولو مرة ، ومن أكثر من الذكر دل على قوة إيمانه ، وتدل الآية والحديث السابق على مشروعية ذكر الله تعالى في جميع الأحوال والحركات والسكنات إلا في حالات كشف العورة للضرورة ، لذلك لا تعترضْ على أهل الذكر .

---

[1] كما في شعب الإيمان للبيهقي

[2] ٩٢١٣

قوله تعالى :{ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } فهي ليست عبثاً أو لعباً أو باطلاً وإنما للحق والحكمة ، وهذا قوله سبحانه :
{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }.
قوله تعالى :{ بِالْحَقِّ } أي : حتى تعرفه وتعبده وهو قوله تعالى :
{ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ...} الآية .
وإذا عرفت الله عبدتَه حقاً لأنه حقاً إله يُعبد ، وليس لك منة عليه جل وعلا بل إنك تقوم بأداء حقه سبحانه عليك .
ومن جملة الحق الذي حقَّه سبحانه على نفسه إرسال الرسل حتى يبيِّنوا للناس كيف يعبدون الله تعالى وهذا قوله سبحانه :
{ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } .
والنتيجة أنه لابد من يوم آخِر يرجع فيه العباد إلى الله ويُثاب المحسن ويُعاقب المسيء ، قال تعالى :
{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا } أي بل بالحق وللحق { ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }
وهذا قوله تعالى :
{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ }
فهو سبحانه حق ، وعبادته حق ، والرسل حق ، والآخرة حق ، والسؤال حق .
قال تعالى :{ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } .
بلى وعزة ربي .
وقد ثبت اليوم الآخر عند أولي الألباب بالتفكر والتعقل ، وأنه لابد من سؤال وحساب فقالوا :{ سبحانك فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } آمين .
وإن التفكر في خلق السموات والأرض أمر مطلوب يزيد في الإيمان ، وأما التفكر في ذات الخالق وكُنْهِهِ سبحانه وحقيقته فهذا أمر منهي عنه .
لأن التفكر في أمر يدل على أنك قد أحطت بهذا الأمر وجعلت تفكر في حكمته وسره ، وإن الله تعالى لا يُحاط به لا قدرة ولا علماً ولا بصراً ، لأنه سبحانه إليه المنتهى وليس له انتهاء .

كما روى الدارقطني وغيره أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ مَرَّةً :
{ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } قال صلى الله عليه وسلم في بيان معنى من معاني الآية : (لا فكرة في الرب)
وورد في الحديث :
(تَفكَّروا في خلق اللَّه ولا تَفَكَّروا في اللَّه فإنكم لن تقْدروا قدره) [١]
وكيف لك أن تحيط بمن أحاط بك علماً وقدرة وبصراً و...
{ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ } أي من الكفار
{ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ }.
أي والخزي مستحق له لأنه ظالم ، وما له من نصير ولا شفيع إن أنت أخزيتَه .
والظلم إذا أُطلق في القرآن يراد به الكفر ، وكذلك الظالم - كما في الآية :
{ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } فأظلم الظالمين من كفر بالله ، وأعدلُ العادلين من وَحَّدَ الله تعالى قال تعالى :
{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } أي بـ : (لا إله إلا الله) أولاً ، وذلك لأنك اعترفت بالحق لمن هو أهله وهو الله تعالى .
أمّا عندما تحكم على غيره كالأصنام وغيرها بأنه إله فأنت ظالم في حكمك قال تعالى :
{ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ }

---

[١] قال السيوطي في الدر المنثور :
أخرج الدارقطني في الأفراد والبغوي في تفسيره عن أُبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { وأن إلى ربك المنتهى } قال : (لا فكرة في الرب)
وقال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة :
حديث: (تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في اللَّه)
ابن أبي شيبة في العرش من حديث سعيد بن جبيرعن ابن عباس ، ورواه الأصبهاني في ترغيبه، ثم أبو نُعيم في الحلية عن عبد اللَّه بن سلام قال :
خرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على أناس من أصحابه، وهم يتفكرون في خلق اللَّه، فقال لهم : (فيم كنتم تفكرون) ؟
قالوا: نتفكر في خلق اللَّه ، قال : (لا تتفكروا في اللَّه وتفكروا في خلق اللَّه) .
ولأبي نُعيم فقط عن ابن عباس أنه صلى اللَّه عليه وسلم خرج على أصحابه فقال:
(ما جَمَعَكم) ؟ قالوا: اجتمعنا نذكر ربنا ونتفكر في عظمته
فقال : (تفكروا في خلق اللَّه ولا تفكروا في اللَّه، فإنكم لن تقدروا قدره).. الحديث، وللطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، من حديث ابن عمر مرفوعاً :
(تفكروا في آلاء اللَّه ولا تتفكروا في اللَّه)
وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنى صحيح . اهـ

ولما نزل قوله تعالى :{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا } ـ أي يخلطوا ـ
{ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } فَهِم بعض الصحابة من قوله تعالى { بِظُلْمٍ } أي بذنب ، لأن من أذنب فقد ظلم نفسه ـ فشقَّ ذلك عليهم فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله :
[وأيُّنا لم يظلم نفسه] ؟ ـ أي ولو بصغيرة ـ
فقال صلى الله عليه وسلم : (ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه { يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم } [1].
فبيّن لهم صلى الله عليه وسلم أن المراد من الظلم في الآية الكفر ولذلك فإن معنى قوله تعالى :{ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ }
أي : وما للكافرين من شفعاء ، أما المؤمنون فهناك من يشفع بهم .
ـ قلت : وباب الشفاعات له أبحاث خاصة تجدها في كتاب :
[الإيمان بعوالم الآخرة] لمولانا الوالد رضي الله عنه
فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى ـ .
قوله تعالى : { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ }
وهذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين أن يدعوا بهذا الدعاء
{ رَبَّنَا } أي يقولون : ربنا
{ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا }
وهذا هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه :{ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ }
{ أَنْ آمِنُوا } أي : صدِّقوا تصديقاً جازماً لا يقبل الشك
{ بِرَبِّكُمْ } الذي خلقكم ورزقكم ، وكيف يَسَعُ الإنسان أن ينكر من خلقه ؟! ومن أنكر الصانع فأولى به أن ينكر المصنوع ، ومن فعل هذا فهو مخلوع أحمق .
{ فَآمَنَّا } أي بلا توقف ـ لأنه ربنا خالقنا و مُمِدُّنا ـ وهذا أمر معقول مقبول ولم يكلفنا سبحانه بما لا يقبله العقل السليم .
{ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي } وقد سمع هذا النداء الصحابة رضوان الله عليهم وسمعه من بعدهم ممن لم يروا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن رسالته بلغتهم وستبلغ الناس كافة إلى يوم القيامة ، ومادام القرآن قد نقل إليك بالتواتر جيلاً بعد جيل فلا فرق بينك وبين الذي كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكما بَلَغَ أولئك فكذلك بَلَغَكَ .

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب استتابة المرتدين وصحيح مسلم كتاب الإيمان

وهذا المراد من قوله تعالى :{ وَأُوحِيَ إِلَيَّ } أي وقل لهم أوحي إلي { هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ }أي لأنذركم به يا أهل زماني وأنذر به كل من بلغه هذا القرآن إلى يوم الدين .
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :(من بلغه القرآن فكأنما شافهته به) [١]
أي : فكأنما اجتمعتُ به وقرأت عليه الدعوة والرسالة .
ولما نزلت هذه الآيات على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نبّه صلى الله عليه وسلم إلى عظيم قدرها وعلو شأنها ففي الحديث المروي من عدة طرق أن عطاء بن أبي رباح سأل السيدة عائشة رضي الله عنها- من وراء حجاب وذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - سألها فقال :

[أخبريني بأعجب ما رأيتِ من رسول الله صلى الله عليه وسلم] ؟

قالت : [وأي شأنِه لم يكن عجباً] !

- أي إن كل أمور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمور عظيمة جليلة -

[إنه أتاني ليلة فدخل معي في لحافي ثم قال : (ذريني أتعبَّد لربي) فقام فتوضأ ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت : [يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر] ؟!

قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً)

---

[١] قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من بلغه القرآن فكأنما شافهتُه به ، ثم قرأ :

{ وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ }) .

- أي إنه صلى الله عليه وسلم لا يبكي خوف عذاب أو ذنب ، وإنما قام وأطال القيام حتى تورمت قدماه شكراً لله مولاه -

(ولمَ لا أفعل وقد أنزل علي هذه الليلة { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}

ثم قال صلى الله عليه وسلم : (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) .[1]

وأخرج ابن أبي الدنيا في التفكر عن سفيان رَفَعَهُ قال :

(من قرأ سورة آل عمران فلم يتفكر فيها ... وَيْلَهُ ، فعدَّ بأصابعه عشراً)

وقد سئل الإمام الأوزاعي عن أقل درجات التفكر في الآيات السابقة حتى يُخرج المؤمن نفسه من هذا الويل المهدَّد به

فقال : [يقرؤهن وهو يعقلهن] - أي : أن يفهم المؤمن معناها ولو إجمالاً حتى يُخرج نفسه من الويل المهدد به - . اهـ

أما قوله صلى الله عليه وسلم : (أفلا أكون عبداً شكوراً) ؟

أي : أفلا أشكر الله أن أنعم علي بأن غفر لي ما تقدَّم من ذنبي وما تأخر ، - - وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، إذ إن كل رسول يعتذر عن التقدم لمقام الشفاعة حين يُطلب منه في موقف الآخرة ، ويعتذر بسبب ذنبه بالنسبة لمقامه ، حتى يقول سيدنا عيسى عليه السلام : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وقد حضر اليوم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فيأتوني فيقولون : يا محمد اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا ، فأقول : أنا لها)[2]

---

[1] قال السيوطي في الدر المنثور :

أخرجه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التفكر وابن المنذر وابن حبان في صحيحه وابن مردويه والأصبهاني في الترغيب وابن عساكر

[2] طرف حديث في المسند ٢٤١٥

ويتقدم صلى الله عليه وسلم ويشفع عند الله تعالى .
ولذلك لما نزلت :{ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } أكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم من العمل وقام وقام حتى تورمت قدماه الشريفتان [1]
وفي رواية : [حتى تفطَّرت] - أي : تشقَّقت - قدماه الشريفتان صلى الله عليه وسلم شكراً لله على ما أنعم عليه صلى الله عليه وسلم .
قالت السيدة عائشة رضي الله عنها :
[قام صلى الله عليه وسلم حتى تورَّمت قدماه]
أي : غلظت وانتفخت من كثرة التهجد -
وفي رواية عنها رضي الله عنها أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه - أي: تتشقق من كثرة القيام -
فقالت : [لمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر]؟
قال : (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً) ؟ [2]
قال الحافظ الزرقاني في شرحه على المواهب :
قال الإمام البخاري: والفطور : الشقوق ، انفطرت : انشقت .
وللنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ:
[كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي حَتَّى تَزْلَعَ قَدَمَاهُ]
وقوله : [تزلع] بزاي وعين مهملة أي تتشقق .
قال الحافظ: ولا اختلاف بين هذه الروايات إذ حصل الانتفاخ والورم وحصل الزلع والتشقق . اهـ

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين .

---
[1] انظر صحيح البخاري كتاب التفسير
[2] انظر صحيح البخاري كتاب التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الخامسة
حول تفسير أواخر سورة آل عمران

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

تقدم في المحاضرات السابقة قول الملَك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أبشر بنورين أوتيتَهما لم يؤتَهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ) - وفي رواية النسائي وغيره : (لم تقرأ) [١]-

(بحرف منهما إلا أعطيته) [٢]

وفي رواية : (إلا أوتيته) [٣]

ولذلك تسمى هذه السورة (سورة الإجابة) وخواتيم سورة البقرة (آيات الإجابة) بدليل قوله في الحديث السابق : (إلا أعطيته) .
وفي الحديث :(من قرأ آيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتَاه) [٤]

أي كفتاه قيام تلك الليلة كما قيل ، وقيل : كفتاه من شر الشياطين والأرواح الخبيثة ، وقيل : كفتاه مهماته وهذا هو الأصح أي :كفتاه ما هو مهتم بأمره .

[١] انظر السنن الكبرى للنسائي ومستدرك الحاكم كتاب فضائل القرآن
[٢] انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
[٣] كما في شعب الإيمان للبيهقي
[٤] انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

فينبغي قراءة خواتيم سورة البقرة كل ليلة بعد العشاء لِما ورد في فضلها من أحاديث .

كما أن خواتيم سورة آل عمران تُطلب قراءتها آخر الليل لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ من الليل كان أول ما يقرأ آخر آل عمران ثم يقوم ويتوضأ ويصلي قيام الليل [١] .

وقوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }

أي ينظرون في ظواهر الأمور ويعلمون بعد التعقُّل أن هناك خالقاً بارئاً عليماً عظيماً حكيماً .

وهؤلاء الذين يبحثون في الحكمة من خلق الله للأشياء هم أدنى من أولي الألباب ، إذ إن أولي الألباب يخترقون الظاهر وينتهون إلى اللباب ، وأنت تعلم أن هناك قشراً ولباً ، فلمّا تريد أن تصل إلى اللب تقتحم القشر ، فهؤلاء وصلوا إلى معرفة جانب من حكمة خلق الله لهذا العالم ، قال تعالى :
{ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }

فأولو الألباب هم أهل الحكمة ، وقد وصف الله تعالى أولي الألباب بالذكر والفكر فقال جل وعلا :
{ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي في حكمة خلق هذا العالم وما فيه .
قال تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ }فلم يخلق الله تعالى الخلق كاللعبة حتى يلهو بها ويلعب ، وإن العاقل من بني الإنسان لا يصنع شيئاً للهو واللعب بل للجد والحكمة - ولله المثل الأعلى -
فلم يخلق سبحانه الخلق باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً بل خلقها بالحق ، فأولو الألباب نظروا في هذا العالم فرأوه متقناً محكماً في جميع وجوهه ونواحيه ولابد لهذا الخلق المتقن المحكم لابد له من حكمة خُلق من أجلها ، قال تعالى

---

[١] تقدم تخريج الحديث الشريف مفصلاً برواياته في المحاضرة الرابعة

{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } والملك الحق لا يخلق إلا للحق وبالحق .
فلما علم أولو الألباب ذلك وآمنوا به قالوا بعد التفكر كما أخبر سبحانه عنهم :{ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا } أي بل بالحق .
وهذا قوله سبحانه :
{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ } الآية
وقد خلق الله تعالى هذا العالم وما فيه حتى تتعرف وتعلم قدرته سبحانه وعلمه وحكمته وعظمته ، فالعالم علامات دالة على الله سبحانه فخلق الله تعالى العالم ليُعلم ، قال تعالى :
{ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ } لمَ ؟
{ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }.
فإذا عرفت عظمة قدرته وسَعَة علمه وجليل حكمته جل وعلا وَجَبَ عليك أن تعبده ، وهذا حق لله على عباده كما في الحديث :
(حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) [١] .
قال تعالى :{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } أي ليتشرفوا بعبادتهم لي وأقرِّبهم إلى حضرتي وأكرمهم بكرامتي وأُحلَّهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .
فليست العبادة من باب إحراج العباد وإيقاعهم في الشدة والعنت والتعب قال تعالى :{ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } بل هي للترقي والتكمل من أجل التأهل للحلول في مقعد صدق عند مليك مقتدر .
فهناك من عَبَد الله وهناك من جحد ، وكلّ يموت ، ولذلك فإن الحق يقتضي أن يكون هناك يوم آخر فيه السؤال وفيه الجزاء للمحسن على إحسانه وللمسيء على إساءته ، وهذا قوله تعالى :
{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } ومن جملة الحق ما جاء في قوله تعالى : { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ } الآية ، فأولو الألباب عرفوا ذلك وقالوا كما أخبر سبحانه عنهم :
{ربنا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ } أي بل خلقت هذا بالحق ، فهم أهل الحكمة ، وهذا شأن المؤمن الكامل أن يعرف الحق ويعترف به ، وطالما أن مرجعهم إلى الله تعالى فقد سألوا الله أن يقيهم عذاب النار .

---

[١] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب اللباس وصحيح مسلم كتاب الإيمان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

قال تعالى معلِّماً لهم أن يدعوه فيقولوا :
{ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ..}الآية
فقوله جل وعلا :{ مُنَادِيًا } والتنكير للتعظيم والتفخيم - أي منادياً له شأنه وفضله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه :{ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ } الآية .
والنداء ينتفع به القريب والبعيد ، فقد نادى صلى الله عليه وآله وسلم القريب في زمنه ونادى البعيد عن زمنه ممن يأتي بعده إلى يوم القيامة ، ويسمى المؤذن منادياً لأنه ينادي إلى الصلاة ، قال تعالى :
{ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا }
وقال سبحانه { إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ }
وقال صلى الله عليه وسلم : (إذا نادى المنادي فتحت أبواب السماء) [1]
فالمنادي يرفع صوته ليسمع القريب والبعيد .
{ يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } : أي ينادي العباد أن يؤمنوا بالله تعالى كما في الحديث الذي رواه الدارمي وغيره وأصله في صحيح البخاري عن ربيعة الجرشي رضي الله عنه قال :
أُتِي النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : [لتنم عينك ، ولتسمع أذنك ، وليعقل قلبك] قال صلى الله عليه وسلم : (فنامت عيني ، وسمعت أذناي ، وعقل قلبي) فقيل لي : سيد بنى داراً فصنع مأدبة - أي مضافة - ، وأرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ورضي عنه السيد ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ، ولم يطعم من المأدبة ، وسخط عليه السيد ، قال : فالله السيد) - أي : بالسيادة المطلقة وهي سيادة الألوهية والربوبية - ، (ومحمد الداعي ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنة [2]) .
والمأدبة في لغة العرب : السفرة [3]ذات الألوان المتعددة من الأطعمة والفواكه لأن مادة الهمزة والدال والباء تدل على الجمع ، ومنه الأدب وهو جمع الأخلاق العالية ، وأديب الكلام هوالذي جمع علوماً من اللغة العربية .

[1] عزاه السيوطي في الجامع الكبير لأبي يعلى في مسنده وابن السني ، وأبي الشيخ فى الأذان ، والحاكم ، وأبي نعيم فى الحلية ، والضياء عن أبي أمامة رضي الله عنه

[2] كما في مقدمة سنن الدارمي بهذا اللفظ وفي المعجم الكبير للطبراني وأصله في صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة

[3] جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة : السُفْرة : المائدة وما عليها من طعام

قوله تعالى : { يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } أي التصديق اليقيني ، فإذا كنتم عقلاء موقنين تصدِّقون بوجود ما حولكم من العوالم كالشمس والقمر والكواكب والأشجار والبحار والليل والنهار ، فهل أنتم مصدقون بوجود أنفسكم أي هل أنتم من أهل التصديق ؟ فإذا كنتم كذلك وتصدقون بجميع ما هنالك فيجب أن تكونوا أشد تصديقاً وإيماناً بوجود الصانع والخالق لكم ولهذه العوالم التي تصدقون بوجودها ..

فكما لا تتردد في إثبات وجود من بنى المبنى وصنع المصنع وتوقن بوجود الباني والصانع قبل أن تحيط علماً بالمبنى والمصنع فكذلك - ولله المثل الأعلى - يجب أن تكون مؤمناً موقناً بوجود خالق السماوت والأرض

قال تعالى :{ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }

وهذا قوله تعالى :{ يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } أي للتصديق { أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ } لأنكم مخلوقون مربوبون ، فأيقِنوا بربكم الذي خلقكم أشد من إيمانكم بوجود أنفسكم وما حولكم .

فكان جواب أولي الألباب كما أخبر تعالى :{ فَآمَنَّا }

والفاء للتعقيب أي حالاً قالوا :[آمنا بالله] ، دون تراخٍ لأن الأمر معقول لا يقبل الجدل .

وقد بلغ نداؤه صلى الله عليه وسلم كل شخص ، وهذا قوله تعالى :

{ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ }

وفي الحديث : (من بَلَغَه القرآن فكأنما شافهتُه به) [1]

أي كأنه رآني وبلَّغته الرسالة .

ولما بلغت رسالته جميع العباد كان السؤال عنه صلى الله عليه وسلم وعن ما جاء به ففي الصحيحين عن أسماء رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم حمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال :

---

[1] قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من بلغه القرآن فكأنما شافهته به ، ثم قرأ : { وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ }).

(ما من شيئٍ لم أكن أُريته إلا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، فأوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل - أو قريباً - من فتنة المسيح الدجال) - أي تُمتحنون محنة لا يثبت أمامها إلا من يثبته الله تعالى ، اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة آمين –
(يُقال: ما عِلمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن - أو الموقن - فيقول : هو محمد هو محمد هو محمد - ثلاثاً - فيقال له: نم صالحاً) - أي استرح - (قد علمنا إن كنت لموقناً به) - أي : ولكنهم سألوه حتى يطمئن على نفسه بالفوز وتعلو درجته -
(وأما المنافق - أو المرتاب - فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلتُه) [1]
وفي رواية : (وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدري) - أي لا أدري أنه نبي أم لا -

(فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه) - أي اجتمعي وانضمي - (فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه) - أي تتفرق وتزول عن مستواها الذي كانت عليه - (فلا يزال معذَّباً حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك) [2]

وفي رواية : (وإن الكافر إذا وُضع في قبره أتاه ملك فيقول له :

ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : كنت أقول ما يقول الناس)
- أي كان يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر أو كاهن أو مجنون كما زعم الكافرون -

(فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعه الخلق غير الثقلين) [3]

وقد حُجبوا عن السماع حتى لا ينفروا من دفن الأموات ، ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكاناً وسمع عذاب المقبورين قال :
(إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تَدافنوا ، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه) [1]

---

[1] صحيح البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم كتاب الخسوف
[2] انظر سنن الترمذي وصحيح ابن حبان كلاهما في كتاب الجنائز
[3] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٢٩٦٥

يعني لو أن الله كشف لكم عن عذاب أهل القبور من المذنبين لترك الأحياء منكم دفن أمواتهم خوفاً وفراراً لئلا يسمعوا أصوات المقبورين من العصاة الذين ماتوا ولم يتوبوا .
وأما سؤال الآخرة فقد جاء في الحديث :
(ولَيَلْقَيَنَّ الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن له : ألم أبعث إليك رسولاً فبلَّغك ؟
فيقول : بلى)
- أي فماذا عملت ؟ -
(فيقول : ألم أعطك مالاً وأفضل عليك ؟
فيقول : بلى)
- أي : فماذا عملت به ؟ -
(فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم)[2]
فلما أخبرك صلى الله عليه وسلم عن ما سوف تسأل عنه وجب عليك أن تعدّ نفسك للجواب .
قال صلى الله عليه وسلم :
(اتقوا النار ولو بشقة تمرة فمن لم يجد شقة تمرة فبكلمة طيبة) [3]
- أي مع والديك وزوجك وأصحابك و...
قوله تعالى :
{ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ } { أَنْ } بمعنى أي ، وقال بعضهم : هي مصدرية أي : (لأن آمنوا)
{ فآمنا } أنك أنت الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم
{ فَآمَنَّا } أي اعتقاداً وعملاً وقولاً ، لأن الإيمان يطلق على الأعمال أيضاً قال تعالى : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } أي صلاتكم - فالإيمان يشمل الاعتقاد والعمل والقول والخلق قال صلى الله عليه وسلم :
(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)[4]

---

[1] صحيح مسلم كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المناقب عن عدي بن حاتم رضي الله عنه
[3] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المناقب عن عدي بن حاتم رضي الله عنه
[4] قال السيوطي في الجامع الكبير :
(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)
أبو يعلى ، والحاكم فى الكنى ، والضياء عن أنس ، وأبو داود ، وأحمد ، والدارمي ، وابن حبان ، والبيهقي فى شعب الإيمان ، والحاكم عن أبي هريرة ، والبزار عن جابر و الطبراني فى الأوسط ، وفي الكبير ، والخرائطي عن عمير بن قتادة الليثي والخرائطي فى مكارم الأخلاق عن أبي ذر

{ فَآمَنَّا }أي قولاً وعملاً واعتقاداً ، ولكننا يا رب قد نقصر في بعض الأعمال ونقع في بعض المخالفات فلنا عندك رجاء
{ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ }
{ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } أي الكبائر { وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا } أي الصغائر لأنه سبحانه قابلها بالذنوب ، أما إذا أطلقت إحداهما فقد شملت الأخرى لأن الذنب ومادة الذنب - بالفتح - معناها شيء مشين ، وأما السيئات فسميت بذلك لأن فيها شيئاً من السوء ضد الحسنات .
ثم طلبوا من الله الثبات على الإيمان واعتمدوا على الله في ذلك فقالوا :
{ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ } أي اختم لنا بحسن العاقبة ولا تسلب منا ما وهبتنا ، فنحن آمنا ، فنسألك الحفظ والثبات على الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم .
أما كلمة الأبرار إذا أُطلقت فتشمل الأبرار والمقربين ، وهي جمع (برّ) أو (بارّ) وهو المؤمن الكامل ، قال تعالى :
{ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } .
وقولهم كما أخبر سبحانه :{ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ } ولم يقولوا [توفنا أبراراً] وهذا موقف العبد أمام ربه أنه ينظر إلى نفسه بالتقصير فهم يرون أنهم قاصرون أن ينالوا مقام الأبرار فقالوا :{ َوتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} أي نحن نحبهم فألحقنا بهم واحشرنا معهم ، (والمرء مع من أحب) .[1]

---

[1] قال السيوطي في الجامع الكبير :
(المرء مع من أحب)
مالك في رواية معن ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي عن أنس ، والبخاري ومسلم عن ابن مسعود ، وابن منيع ، وأبو نعيم فى الحلية ، والضياء عن أبي ذر ، وعبد بن حميد ، وأبو عوانة عن جابر ، وأحمد ، والبخاري عن أبى موسى ، والطبراني ، والشيرازي فى الألقاب ، وابن عساكر عن عروة بن مضرس ، والطيالسي ، وأحمد ، والترمذي وقال : حسن صحيح ، وابن خزيمة ، والطبراني ، وابن حبان ، والضياء عن صفوان بن عسال ، وأبو عوانة ، وابن قانع ، والطبراني والضياء عن صفوان بن قدامة ، والطبراني عن ابنه عبد الرحمن ، والطبراني عن معاذ

وهذا تعليم من الله لعباده في الدعاء أن يضمّوا أنفسهم في الدعاء مع جملة الأبرار ، وأن يعترفوا بذنوبهم وخطاياهم فقالوا :
{ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ }
وقولهم { فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } أي أن لنا ذنوباً فاغفرها لنا ، فاعترفوا بذنوبهم وطلبوا من الله غفرانها وأن يتوفاهم مع الأبرار .
وهذا شأن العبد أن يلبس شعار العبودية ويلاحظ مقام الربوبية
ولذلك قالوا :{ رَبَّنَا } خمس مرات .
فانظر إلى صفة أولي الألباب أولي الحكمة والذكر والفكر ، أولئك المؤمنون كمال الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، انظر أيها العاقل المؤمن إلى موقفهم مع الله تعالى ربهم وكيف سألوه ودعوه بلسان العبودية ، وصفة الذل والانكسار والاعتراف متحققة بهم !
فمهما علت رتبتك وارتفعت درجتك فلا غنى لك عن مغفرة الله تعالى وسؤاله والتذلل بين يديه .
ولما كان الأمر كذلك واستشعر هؤلاء عبوديتهم أمام حضرة الربوبية ضمِن لهم سبحانه الإجابة ، قال جل وعلا :{ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ }
وفي الحديث عن سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(إن الله حيِيٌّ كريم) - وفي رواية :(إن ربكم حيي كريم) - [1]
(يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردَّهما صفراً خائبتين)[2]
- أي وذلك إذا استشعر العبد عبوديته أمام حضرة الربوبية لقوله صلى الله عليه وسلم : (إن ربكم .....)
وفي مستدرك الحاكم :
(إن الله رحيم حييّ كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ، ثم لا يضع فيهما خيراً)
وحياؤه سبحانه حياء كرم .
وفي تفسير الألوسي :
وفي بعض الآثار أن موسى عليه السلام قال مرة : (يا رب)
فأجابه الله تعالى : (لبيك يا موسى) فعجب موسى عليه السلام من ذلك فقال : (يا رب أهذا لي خاصة) ؟
فقال : (لا ، ولكن لكل من يدعوني بالربوبية) [3]

---

[1] كما في سنن ابن ماجه كتاب الدعاء
[2] كما في سنن الترمذي كتاب الدعوات واللفظ له وسنن أبي داود كتاب الصلاة وصحيح ابن حبان كتاب الرقائق
[3] انظر تفسير الالوسي لقول الله تعالى :

وقال بعض السلف: قام سيدنا زكريا عليه السلام من الليل ، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: (يا رب، يا رب، يا رب)
فقال الله له :(لبيك، لبيك، لبيك) . [١]
فقال : { رب هب لي من لدنك ولياً } يلي الأمر بعدي
وقوله { من لدنك} أي من عندك بخرق العادة وإلا فأنا عقيم وزوجتي عاقر
وقال سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه :
من ألمَّت به ملمة أو اشتدت به حاجة أو وقع في كربة فليقل :
[ربنا ربنا ربنا ربنا - خمس مرات -] ثم يسأل حاجته ، فيجيبه الله تعالى ، لأن الله تعالى ذكر لنا عن عباده المؤمنين قولهم { ربنا } خمس مرات ثم قال : { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ } وهذا تعليم لنا [٢].
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين

{ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ }
وروى الإمام أحمد في الزهد وابن عساكر في تاريخ دمشق عن عطاء قال :
[طاف موسى بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، وهو يقول : اللهم لبيك ، فأجابه ربه تبارك وتعالى : لبيك يا موسى ، ها أنا ذا لديك] .
[١] انظر تفسير ابن كثير للآية الكريمة : { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا }
[٢] انظر تفسير الإمام الرازي والقرطبي والخازن للآية الكريمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة السادسة
حول تفسير أواخر سورة آل عمران

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

لقد كان السلف رضي الله عنهم يعلِّمون الصبي أواخر سورة البقرة إذا بلغ سن التمييز لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :
(إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أُعطيتُهما من كنزه الذى تحت العرش ، فتعلَّموهن وعلِّموهن نساءكم وأبناءكم ، فإنهما) - أي خواتيم سورة البقرة - (صلاة وقرآن ودعاء) [1]
وكما يُطلب قراءة خواتيم سورة البقرة بعد العشاء إلى ما قبل النوم من كل ليلة ، كذلك يطلب قراءة أواخر سورة آل عمران عند القيام لصلاة الليل بعد النوم - آخر الليل - فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا استيقظ لقيام الليل مسح النوم عن عينيه صلى الله عليه وسلم ونظر إلى السماء وقرأ آخر سورة آل عمران .[2]
ولا تملَّ أيها المؤمن من سماع كلام الله تعالى وتفسيره ، لأنك وإن كنت تفهم بعض المعاني فقد خفي عنك الكثير ، ومهما عرف العارفون وتكلم المفسرون على معاني آيات الله تعالى فلم ولن يحيطوا علماً ولا فهماً بها لأنها كلام مَن لا يتناهى ، قال تعالى :
{ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } أي من معانيها

---

[1] ورواه الحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ، ورواه البيهقي في الشعب
[2] تقدم تخريج الحديث الشريف كاملاً برواياته في المحاضرة الرابعة

{ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }
قوله تعالى : { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ }
والمعنى : ربنا وآتنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، وهذا سيد الأنبياء والمرسلين الذي ختمت به الرسالات والنبوات أنزلت ذلك عليه ،
فآتنا ما وعدتنا على رسلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بما جاءت الرسل قبله وزيادة فهو صلى الله عليه وسلم الجامع لما عندهم وزيادة .
وقولهم : { آتنا ما وعدتنا } أي : على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام أي أنت يا مولانا وعدتنا أن تغفر لمن استغفرك ، وأن تكرم من أطاعك ، وأن تكرم عبادك المؤمنين وأن تجعلهم في دار الكرامة فأعطِنا ذلك .
وقد يقال : إن الله تعالى لا يُخلف وعده ، فما معنى { آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا } ؟
فيقال : ليس المراد لا تُخلف وعدك معنا يا رب ، ولكن المراد حققنا أن نكون من أهل وعدك أي من الذين وعدتهم فإنك لا تخلف الميعاد ، فاجعلنا من الذين لا يخالفون أوامرك كي لا يتخلفوا عما وعدتَ به عبادك المؤمنين
أما المواعيد الإلهية لعباده فهي التي جاء ذكرها في كلامه سبحانه ومنها :
{ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا } أي إن هم تابوا وأنابوا إليه وعدهم جلَّ وعلا أن يغفر لهم وأن يكرمهم ويتفضل عليهم ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ، ولكن سل الله تعالى أن يجعلك من الذين وعدهم ويحققك بما وعد .
وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم :
(إن شئتم أنبأتُكم ما أول ما يقول الله للمؤمنين يوم القيامة وما أول ما يقولون له ، فإن الله يقول للمؤمنين : هل أحببتم لقائي ؟
فيقولون : نعم يا ربنا ، فيقول : لمَ ؟
فيقولون : رجونا عفوك ومغفرتك
فيقول : قد أوجبتُ لكم عفوي ومغفرتي) [1]
وهذا قوله تعالى : { وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا } .

[1] قال السيوطي في الجامع الكبير :
رواه ابن المبارك ، والطيالسي ، وأحمد ، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ، والطبراني ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ رضي الله عنه

كما وعد الله تعالى عباده المؤمنين بقوله :{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }.
فقد وعد الله تعالى المؤمنين والمؤمنات جنات
- وكل مؤمن ومؤمنة له جنة -
روى الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(إن أدنى أهل الجنة منزلة) - وهو آخر من يدخل الجنة من العصاة بعد أن خرج من النار –
(لَمَن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسُرُرِه مسيرة ألف سنة)
- وفي رواية الإمام أحمد : (ألفي سنة) - [1]
(وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}) [2]
قوله سبحانه : { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ }
أي عالية مشرفة على المَناظر ، وفي الحديث :
(إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها)
- أي قصوراً عالية شفافة -
(أعدَّها الله لمن أطعم الطعام وَألان الكلام وتابع الصيام وصلّى بالليل والناس نيام) [3]
فالمساكن الطيبة لمن أطاب الكلام مع عباد الله تعالى كلهم ، وأطعم الطعام - خاصة للفقراء والمساكين - وصلى في الليل التهجد .

---

[1] المسند ٤٣٩٥
[2] سنن الترمذي كتاب صفة الجنة والمسند ٥٠٦٥
[3] قال السيوطي في الجامع الكبير : رواه أحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والطبراني ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وفي السنن عن أبي مالك الأشعري ، و الترمذي ، وابن السني ، والبيهقي ، وهناد ، وعبد الله بن أحمد عن على .، وأحمد ، ومحمد بن نصر ، والطبراني ، والحاكم ، والبيهقي عن ابن عمرو

وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
(إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم) - أي : من أهل الدرجات العالية - (كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم) - وهذا هو الفرق بين مقام الأبرار والمقربين -
(قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال :
بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين)[1]
اللهم ألحقنا بهم . آمين
قوله تعالى : { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } أي أن الرضوان الذي يتجلى به عليهم سبحانه هو أكبر من ألوان النعيم كلها التي ذاقوها وعرفوها .
وفي الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك) - أي نحن نجيبك ونسعد بإجابتك لأن الخير بيديك -
(فيقول : هل رضيتم) - أي بما أعطيتكم من ألوان النعيم - ؟
(فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك
فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟
قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟
فيقول : أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) [2]
وإن رضا الله تعالى لا حدَّ له ، لأن من رضي عنك أَتْحفك بالخير على حسب رضاه ، والله تعالى لا حد لرضاه فالخير الذي يفيضه على من رضي عنه لا حد له ، اللهم اجعلنا منهم . آمين
ومن مواعيده سبحانه للمؤمنين بالجنة قوله تعالى :
{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ }أي : للذين أحسنوا العمل مع الله بأن تقرَّبوا إليه سبحانه بما أمرهم لهم الحسنى وزيادة .
ومن أحسن العمل مع الله أحسن العمل مع عباد الله لأنهم عباده .

[1] انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[2] انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

وقال جل وعلا :
{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى } أي لهم الحسنى كما قال تعالى :
{ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } فالحسنى هي مقابل عملهم الحسن
{ وَزِيَادَةٌ} وهذا قوله تعالى :{ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } وهذا لا حد له ، ومن أعظم هذه الزيادة أنه سبحانه يتجلى عليهم برؤيته وهذا وعد منه سبحانه وتعالى .
روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية
{ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة }
قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟
ألم يثقّل موازيننا ويبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجِرنا من النار ؟ !
قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه
قال : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقَرَّ لأعينهم)[1]
ولما يتجلى عليهم سبحانه بالرؤية يفنون عن كل نعيم عندهم ، ويُؤخذون عن أنفسهم به ، ويهيمون بالله تعالى ، فكلهم نظر وكل ذرة فيهم تكون ناظرة إلى الله تعالى لأنه خالقها وهي تحبه ، وكلهم سماع لأنه سبحانه ليس رب العينين فقط حتى تنعم العينان فقط بل هو سبحانه رب اليدين والشعر و الذرات ، وكلها لها حظ في النعيم برؤية الله تعالى . اللهم اجعلنا منهم . آمين
قوله تعالى :{ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أي بل أكرمنا ، والخزي هو الخجل وذل النفس ، ويصيب المقصر إذا قوبل بتقصيره ، أو أن الخزي يعتري من طلب أمراً ولم يتحقق له فيقال عنه : خزي ، فقوله تعالى :{ وَلَا تُخْزِنَا } أي أكرمنا في أنفسنا وفيما نسألك ونرجوك فلا تردنا خائبين ولا تردنا صاغرين بل اجعلنا كرماء عليك
{ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ومن باب أولى لا تخزنا في الدنيا أيضاً.
وكان صلى الله عليه وسلم يعلِّم الصحابة في دعائه :
(اللهم لا تخزنا يوم القيامة ، ولا تفضحنا يوم اللقاء)[2]

---

[1] انظر المسند ١٨١٧٧ واللفظ له وسنن الترمذي كتاب تفسير القران وسنن ابن ماجه في المقدمة وسنن النسائي الكبرى
[2] عزاه في كنز العمال لابن عساكر وابن النجار وعزاه السيوطي في الدر المنثور لأبي بكر الشافعي في رباعياته ورواه الديلمي في الفردوس

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم :
(اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجِرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة)[1]

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم :
(اللهم إني أسألك عيشة نقية وميتة سوية ومَرَدَّاً)

- وفي رواية : (ومرداً إليك) [2] -

(غير مخزٍ ولا فاضح) [3].

فقوله صلى الله عليه وسلم :

(عيشة نقية): أي من الكدر والشر والفساد والفتن .

(وميتة سوية) : أي مستوية على الصراط المستقيم المحمدي بأن يموت المؤمن على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(ومرداً إليك غير مخزٍ ولا فاضح) : أي عند رجوعي إليك بالموت والحشر أكرمني ولا تفضحني .
قوله تعالى مخبراً عنهم : { وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أي : بل أكرمنا بأن تجعلنا مع سيد الكرماء وأكرم الأولين والآخرين عليك صلى الله عليه وسلم الذي بشَّرته وضمنت له بأن لا تخزيه فاجعلنا معه ، وهذا ما ذكره سبحانه بقوله :{ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ } وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم { وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ }والمؤمنون الذين آمنوا به هم معه ، ومن كان مع الكريم يُكرم ، ومن كان مع العزيز فهو عزيز وهكذا ، اللهم اجعلنا من الذين آمنوا معه .

---

[1] المسند ١٧٦٦٥ عن بسر بن أرطاة القرشي رضي الله عنه
[2] كما في مصنف ابن أبي شيبة
[3] رواه الطبراني في الدعاء والحاكم في مستدركه وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، و قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني والبزار وإسناد الطبراني جيد. اهـ

وعلى هذا القول يكون قوله تعالى :
{ وَالَّذِينَ آمَنُوا } مبتدأ وقوله سبحانه { مَعَهُ }خبر وهو أرجح من القول بأن { وَالَّذِينَ آمَنُوا } معطوف على {النبي } لأن السياق يدل عليه لأنك إذا قلت : إن { وَالَّذِينَ آمَنُوا } معطوف على { النبي } فيكون المقصود من قوله تعالى { مَعَهُ } هم الصحابة بدليل قوله تعالى :{ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا } الآية .
وهذا يعني أن الله تعالى لا يخزي الصحابة فقط ، وأما باقي المؤمنين ؟!
مع أن صدر الآية :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}
وليس هذا يخص الصحابة فقط ، فقوله تبارك وتعالى :
{ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } فكل من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو معه
{ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } وهذا شأن كل مؤمن وليس الصحابة فقط .
وهو صلى الله عليه وسلم كريم على الله تعالى ، مكرَّم في نفسه على الله ، ومكرَّم فيما يطلبه من الله ، ولذلك أعطي ذلك بشارة له صلى الله عليه وسلم قال تعالى :{ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ }
أما الخليل عليه الصلاة والسلام فقد سأل الله ذلك فقال كما أخبر سبحانه عنه:{ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } فانظر الفرق بين مقام الخليل عليه السلام ومقام الحبيب صلى الله عليه وسلم !
ويقال لسيدنا رسول الله صلة الله عليه وسلم يوم القيامة :
(يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك)
- فأنت صاحب الرأس المرفوع والقول المسموع -
(وسل تُعط) - فأنت لا تخيب -
(واشفع تُشفَّع) [١]
قوله تعالى : { يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ } وهو أعظم من أكرمه الله تعالى وإن الله تعالى لا يخزي جميع رسله وأنبيائه ، ولكنّ أكرمهم على الله تعالى هو الحبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم { وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } فكن معه الآن بالإيمان والاتباع والمحبة تكن معه بدليل :(والمرء مع من أحب) [٢].
{ نُورُهُمْ } أي حين يمشون على الصراط { يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا }

---

[١] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد
[٢] تقدم تخريجه

وذلك لما رأوا أن المنافقين قد أضاءت لهم كلمة (لا إله إلا الله) التي قالوها في الدنيا أضاءت لهم خطوات على الصراط ثم أظلم عليهم وضاعوا فلما رأى المؤمنون ذلك طلبوا من الله تعالى أن يتمم لهم نورهم حتى ينتهوا إلى الجنة بسلام وأن يغفر لهم - أي يسترهم ولا يفضحهم ولا يؤاخذهم إن بقي هناك من الذنوب عليهم .

واعرف هنا قدر نعمة الإيمان التي أكرمك الله بها وتفضَّل عليك بالإيمان وخلقك من والدينِ مؤمنين فحافظ على إيمانك وسل الله التثبيت والموت عليه .

وانظر في قوله تعالى في الكفار :{ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا } أي وقالت لهم جميع المخلوقات : اشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

{ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } .

فنسأل الله تعالى أن لا يسلب منا صالح ما أعطانا .

ولو كان دعاء المؤمنين على الصراط لا ينفعهم عند ربهم لما ذكر الله تعالى لنا ذلك عنهم ، فاعلم أن الدعاء والتوجه إلى الله تعالى لا ينقطع في كل العوالم .

{ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } أي أنت يا مولانا أمرتنا بدعائك وقد دعوناك فاستجب لنا لأنك لا تخلف الميعاد .

فهم يتوسلون إلى الله تعالى بما أوجب على نفسه لأنه سبحانه قال :

{ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }

وقد أمر الله تعالى عباده أن يدعوه وضمِن لهم الإجابة ، قال تعالى :

{ وقال ربكم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }

واعلم أن الإجابة لا تحصل إلا عن قلب حاضر موقن بالإجابة وإلا كان هناك ثواب الدعاء باللسان فقط .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ) [1]

---

[1] رواه الترمذي في سننه والحاكم في مستدركه وقال عنه : هذا حديث مستقيم الإسناد ورواه الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في الدعوات الكبير

وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله :
(ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجّل له دعوته ، وإما أن يدّخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها) - أي مثل ما دعا -

(قالوا : إذن نكثر ، قال صلى الله عليه وسلم : الله أكثر وأطيب) [١]

وقد ورد في الحديث أن (الدعاء مخ العبادة) [٢]
- أي خالص العبادة -
ومَن لزم الدعاء فقد أرضى اللهَ تعالى ، ومن هجره فقد أغضب اللهَ تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم :
(من لم يدْعُ الله غضب الله عليه) [٣].

ولا تستكبر بنفسك عن الدعاء ورفع يديك إلى ربك سبحانه إذ إن تذلُّلك له تعزُّز به جل وعلا .

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(من فُتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سُئل الله شيئاً أحبّ إليه من أن يُسأل العافية)
- اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة -
(إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء) [٤]

---

[١] عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، وأبي يعلى ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد رضي الله عنه

[٢] رواه الترمذي في سننه في كتاب الدعوات والطبراني في الكبير
[٣] رواه الإمام أحمد في مسنده ٩٣٤٢ وابن ماجه في سننه في كتاب الدعاء وابن أبي شيبة في مصنفه
[٤] انظر سنن الترمذي كتاب الدعوات واللفظ له ومستدرك الحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه

ولا سيما وقت السحر ووراء الأذان ودُبُر الصلوات ويوم الأربعاء بين الظهر والعصر [1] وبين المغرب والعشاء من كل يوم ويوم الجمعة وآخر يوم الجمعة ، فاحرص على أوقات الإجابة فقد قال صلى الله عليه وسلم :
(إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تَشْقون بعدها أبداً) [2]

اللهم إنا نسألك نفحة محمدية تُسعدنا بها في الدنيا والآخرة
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين

---

[1] قال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتاب الدعاء :
الخامس من أوقات الإجابة :
الدعاء بين صلاتي الظهر والعصر من يوم الأربعاء
عن جابر رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا في مسجد الفتح ثلاثاً : يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعُرف البِشر في وجهه صلى الله عليه وآله وسلم) - أي : الفرح والسرور -
قال جابر : فلم ينزل بي أمر مهم غليظ إلا توخَّيتُ تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة .
قال الحافظ المنذري : رواه أحمد والبزار وغيرهما ، وإسناد أحمد جيد . اهـ
[2] رواه الطبراني في المعجم الكبير عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه
وقال العراقي في تخريجه أحاديث الإحياء : أخرجه الحكيم في النوادر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة ولابن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة السابعة

حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين وبعض السنن القولية الواردة عنه صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة المكتوبة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن من السنن القولية الواردة عنه صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة المكتوبة :

الاستغفار ثلاثاً ، ثم أن يقول المصلي : (اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام) وقراءة آية الكرسي ، وقراءة المعوِّذات ، وهناك التسبيحات والتحميدات والتكبيرات .

أما الاستغفار فيكون عقب السلام - بعد الفراغ من الصلاة - لِما روى مسلم في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً ثم قال :(اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام) [1].

أما إذا أردت أن تفهم شيئاً من الحكمة في أنه صلى الله عليه وسلم سَنّ ذلك بعد الصلاة فيقال :

[1] في كتاب المساجد ومواضع الصلاة

أما الاستغفار بعد الصلاة فهو من أجل أن يتلافى المصلي ما غفل عنه في صلاته عن ربه ، لأن المصلي في صلاته كان في عبادة وتوحيد ، والتوحيد يقتضي التجريد ـ أي التوجه إلى الواحد الأحد ـ ، ولا يصح أن يلتفت المصلي بقلبه إلى غير الله تعالى ، ولا أن يلتفت بجسمه عن القبلة التي شرع الله للمصلي أن يتوجه إليها بجسمه ، فإذا وقع للمصلي غفلة في صلاته عن ربه ، أو التفاتة إلى غير الله تعالى وجب عليه الاستغفار من ذلك ، ولذلك شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستغفار بعد الصلاة ثلاثاً ـ وهو أقل حد الكثرة ـ والكثرة من حيث النهاية لا حد لها ، ولكن أقل ما يكون في الكثرة هو ثلاث مرات .

ومن توجه إلى الله تعالى بكُلِّيته في صلاته فإن الله تعالى يتوجه إليه بخيراته وبركاته كما في الحديث :

(فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت)[1]

ولما كانت الصلاة صلة للعبد بربه سبحانه حقّ لهذا العبد بعدما فرغ من صلاته وقد كان في مقام الوصال مكبراً راجياً حامداً ذاكراً مستغفراً قارئاً ذليلاً منكسراً إلى الله تعالى ، حقَّ له أن يطلب من ربه ويسأله لأنه كان في حضرة إلهية فلا يردّه الله تعالى ولا يخيّبه بعد ذلك .

وإن أقرب الدعاء إجابة : ما كان دبر الصلوات كما جاء ذلك عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي عن أبي أمامة قال : قيل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الدعاء أَسْمَعُ ؟

قال : (جوف الليل الآخر ودُبُر الصلوات المكتوبات) [2]

ولما كانت المغفرة أحوج ما يحتاجه العبد شرع له الاستغفار أولاً .

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الأمثال عن الحارث الأشعري رضي الله عنه
[2] سنن الترمذي كتاب الدعوات وسنن النسائي الكبرى

ومن ناحية أخرى : فإن الصلاة مكفرة للذنوب كما جاء ذلك في الأحاديث ، وهي تكفر الذنوب على حسب قوّتها وحضور المصلي فيها وخشوعه لله تعالى ، فإذا لم تكن صلاته على تلك الدرجة العالية من الخشوع والحضور شرع له أن يستغفر بعد الصلاة ليتمِّمها ـ أي : يتمم صلاته ـ وتكفّر له ذنوبه .

ثم بعد الاستغفار كان صلى الله عليه وسلم يقول :

(اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ..)

كما روى مسلم وأبو داود واللفظ له عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سَلَّم قال :
(اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام) [1]
وقد جاءت لفظة (وتعاليت) في أحد روايات الحديث وقد ذكرها ابن عساكر رحمه الله في تاريخ دمشق .
فما معنى ذلك ولمَ خصَّ هذا الثناء بالذكر بعد الصلاة دون غيره ؟
إن معنى (اللهم أنت السلام) أي : يا الله أنت السلام فقد قال سبحانه :

{ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ } .

والقدّوس : هو المنزَّه في أسمائه وصفاته عن النقائص والعيوب ، أما السلام : فهو المنزه في ذاته سبحانه عن الصور والهيئات والكيفيات .

وذلك لأنه لما توجه المصلي في صلاته إلى ربه مرَّت على قلبه صور إيمانية قلبية لكنه سبحانه هو السلام بمعنى أنه أجلُّ وأكبر مما تصوَّر المصلي أو تخيّل أو مرَّ على قلبه ، وهو سبحانه المنزه عن الكيفيات والهيئات والصور .

ونظير هذا أنك إذا أثنيت عليه سبحانه ومدحته وعظَّمته فإنه سبحانه أجلُّ وأعظم وأكبر مما مدحت وأثنيت ، ولذلك شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمن أن يقول :

(لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) [1]

---

[1] كما في سنن أبي داود كتاب الصلاة وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

وكذلك في صلاتك :

فمهما عرفت وارتقيت ومهما مرَّت على قلبك من الصور الإيمانية والتجليات الإلهية فهو سبحانه أجل وأعظم من ذلك لأنه هو السلام

- أي المنزه في ذاته عن الصور والهيئات والكيفيات - .

فهو سبحانه السلام أي : لا يُقارب ولا يُنازع في التصوير ، فكن أيها العبد في أمان ، فلا تنازعْ في أن تحدَّه سبحانه أو تقيده فيما تصورتَ ، فلا تنازع صفات الربوبية فهو سبحانه كما هو لا يعلم كيف هو إلا هو [٢].

وعلى هذا فمعنى (أنت السلام) أي مهما عرفناك يا رب وتصورنا من معارفنا بك فأنت أجلُّ وأكبر من ذلك .

(ومنك السلام) أي الأمان

(تباركت) أي كثرت أسماؤك وصفاتك كثرة لا حد لها مع التعالي والتعاظم على وجه التنزيه من أن تشابه شيئاً من صفات المخلوقات .

فهو سبحانه في أسمائه لا يشابه أحداً في أسمائه ، وفي عظمته وعلوه لا يشابه أحداً في صفاته قال تعالى : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } أي ليس له سميّ ولا نظير ولا مكافئ ، وهذا الاستفهام تقريري أي : ليس له سبحانه سميّ أبداً .

---

[١] كما في صحيح مسلم كتاب الصلاة و سنن ابن ماجه كتاب الدعاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

[٢] روى ابن أبي الدنيا في كتابه : [الفرج بعد الشدة] عن إبراهيم بن خلاد قال :

نزل جبريل عليه السلام على يعقوب ، فشكا إليه ما هو فيه ، فقال له : ألا أعلِّمك دعاء إذا دعوت به فرج الله عنك ؟ قال : بلى ، قال : قل :

(يا من لا يعلم كيف هو إلا هو ، ويا من لا يبلغ قدرته غيره ، فرج عني)

فأتاه البشير . اهـ وذكره القاضي التنوخي في كتاب : [الفرج بعد الشدة]

وفي هذا الثناء بهذه الكلمات بعد الصلاة يرجع المصلي إلى مقام التنزيه تحققاً بقوله صلى الله عليه وسلم في مناجاة الله تعالى :

(لا أحصي ثناء عليك) وهكذا يرجع العارف في معارفه إلى مقام التنزيه ونفي التشبيه عن الله تعالى بقوله : (اللهم أنت السلام) .

وأما التسبيحات الواردة عقب الصلاة : فذلك لأن عمدة الصلاة تسبيح وحمد وتكبير لله تعالى ، أي أن المطلوب من العبد المصلي أن ينزِّه الله تعالى عما لا يليق به وهو التسبيح ، ثم يثبت له الكمالات اللائقة به سبحانه وهو

الحمد ، ثم أن يعتقد أنه سبحانه أكبر مما نزَّه ومما حمد ومما عرف فيقول : (الله أكبر)، وهذا هو روح ومخ كل عبادة ، فإذا نقص شيء من هذا في صلاتك جاءت تلك الأذكار بعد الصلاة تجبر ذلك النقص في صلاتك .

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن سعد بن عجرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مُعَقِّبات [1] لا يخيب قائلهن أو فاعلهن دبر كل صلاة :

ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وثلاث وثلاثون تكبيرة)[2] .

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من سَبَّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبَّر الله ثلاثاً وثلاثين فتلك تسعة وتسعون وقال تمام المائة :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) [3]

---

[1] معقبات : بضم الميم وفتح العين وتشديد القاف المكسورة وفتح الباء ، والمعنى أنها عقب الصلوات المكتوبة .
[2] صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة
[3] كتاب المساجد ومواضع الصلاة

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم

فقال صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ؟

قالوا : يصلُّون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويُعتقون ولا نعتق

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أفلا أعلِّمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟

قالوا : بلى يا رسول الله

قال : تسبِّحون وتكبِّرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة

قال : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء [1] .اهـ

واعلم أن الله تعالى قد أمرنا أن نستغفره عقب كل عبادة لأن الإنسان مهما علا في درجات الإيمان فإن عباداته لا تخلو عن شوائب الغفلة وعدم الإخلاص والتقصير .. فيأتي الاستغفار ليجبر ذلك كله .

قال الله تعالى :{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } فلا غنى لأحد عن مغفرة الله تعالى ورحمته .

[1] كتاب المساجد ومواضع الصلاة

وأما قراءة آية الكرسي عقب الصلاة المكتوبة فإن دليل سنّيّتها ما رواه النسائي عنه صلى الله عليه وسلم :

(من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت) .[1]

وروى البيهقي في الشعب عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعواد المنبر يقول :

(من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخوله الجنة إلا الموت ، ومن قرأها حين يأخذ مضجعه أمَّنه [2] الله على داره ودار جاره والدويرات حوله)

فنعم الجار لهذا المؤمن البار .

وروى الطبراني بالسند الحسن عن سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من قرأ آية الكرسي في دبر الصلاة المكتوبة كان في ذمة الله إلى الصلاة الأخرى) [3]

أي كان في ضمان الله وكفالته سبحانه إلى الصلاة الأخرى .

ومعنى (ذمة الله) : أي عهد الله تعالى لأن المصلي لما يدخل في الصلاة يدخل في معاهدة مع الله كما جاء في الحديث عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(من صلى صلاة الغداة فهو في ذمة الله فلا تخفروا الله تبارك وتعالى في ذمته) [4]

---

[1] قال الإمام السيوطي في اللآلىء : أَخْرَجَهُ النسائي وابن حبان فِي صحيحه، وابن السني فِي عمل اليوم والليلة، وصححه أيضًا الضياء المقدسي فِي المختارة

[2] بتشديد الميم وفتح النون

[3] انظر المعجم الكبير للطبراني و فضائل سورة الإخلاص للحسن الخلال

[4] انظر مسند الإمام احمد ١٩٢٥٤ وسنن الترمذي كتاب الصلاة

أي فلا تنقض عهدك مع الله بعد الفراغ من الصلاة ، ومن أجل أن يحفظ الله تعالى على المصلي هذا العهد شرع له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ آية الكرسي عقب الصلاة ، ومن فعل ذلك تكفل الله له أن يحفظ عليه العهد والذمة كما دل عليه الحديث السابق .

وما أحوج المؤمن إلى أن يثبته الله على الإيمان خاصة في الزمان الذي كثرت فيه الضلالات والشبهات ، فكن أيها المؤمن صاحب عقيدة منعقدة على القلب لا تنفك عن القلب ولو انفك القلب ، وسل الله تعالى أن يحفظ عليك الإيمان ويزيدك إيماناً وهدىً ، ومن جملة هذا قراءة آية الكرسي عقب الصلاة .

ولما كانت الصلاة صلة للعبد بربه ، فلكي يحافظ على هذه الصلة ويرفع الموانع والحجب بينه وبين الله تعالى شرع له رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة آية الكرسي عقب الصلاة ، ومن فعل ذلك لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت لأنه حافظ على تلك الصلة التي كانت في صلاته .

وإن سيدة آي القرآن هي : آية الكرسي ، والآية هي العلامة ، فأعظم علامة دالة على الله تعالى هي آية الكرسي .

وهي الآية العظمى لما ورد في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب رضي الله عنه (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم) ؟ قال : قلت : { الله لا إله إلا هو الحي القيوم } فقال صلى الله عليه وسلم : ليهنك العلم يا أبا المنذر)[١] ـ أي هنيئاً لك هذا العلم ـ

وفي رواية :

(والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين تُقدِّس الملِك عند ساق العرش) [٢].

---

[١] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

[٢] المسند ٢٠٣١٨ وشعب الإيمان للبيهقي ومسند عبد بن حميد

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لكل شيء سنام ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هي سيدة آي القرآن هي آية الكرسي) [١].
وعلى هذا فالآيات القرآنية فيها سيدات ، وهناك السور التي جاء وصفها بأنها قلب القرآن [٢] وهناك السنام وهناك سورة تعدل ثلث القرآن [٣] وفي القرآن العرائس والميادين والبساتين والديابيج و الروضات كما جرى عليه السلف رضي الله عنهم إذ كانوا يسمون السور الطويلة بالميادين - وهي السبع الطوال - والمسبّحات هي العرائس ، والحواميم هي الديابيج والمفصّل هو الروضات وهكذا .. [٤]

وهذا كله لمن كان بصير القلب ، لأن الله تعالى قد تجلى لعباده في كلامه ولا يشعر بهذا إلا من كان له قلب

قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ }

وإن تسمية سورة { يس } بـ (قلب القرآن) ، وآية الكرسي بـ (سيدة آي القرآن) ، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن وهكذا .. هذه الأوصاف لهذه السور والآيات لا يعرفها إلا من عرف حقائق القرآن وهو الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

---

[١] انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن ومصنف عبد الرزاق

[٢] جاء في المسند ١٩٤١٥ والسنن الكبرى للنسائي قوله صلى الله عليه وسلم :
(يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له واقرءوها على موتاكم)

[٣] جاء في صحيح البخاري وغيره قوله صلى الله عليه وسلم عن سورة الإخلاص :
(والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)

[٤] قال الإمام الزركشي في كتاب [البرهان في علوم القرآن] : قال بعض العلماء : في القرآن ميادين وبساتين وعرائس وديابيج ورياض ، فالميمات: ميادين القرآن والراءات بساتين القرآن والحاءات مقاصير القرآن والمسبحات عرائس القرآن والحواميم ديابيج القرآن والمفصل رياضه وما سوى ذلك فإذا دخل المريد في الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الرياض وسكن غرفات المقامات اقتطعه عما سواه وأوقفه ما يراه وشغله المشاهد له عما عداه . اهـ ١ / ٤٥٤

ولقد جمعت آية الكرسي مراتب التوحيد ، وجمعت جميع العلامات والشواهد الدالة على الله سبحانه وتعالى ، فهناك توحيد الذات والحياة والقيومية والملك والحفظ ، وكل هذا يرجع إلى توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال .

وقوله تعالى :{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } يدل على توحيد العبادة فهو سبحانه المعبود وحده ، ولمَ كان سبحانه وحده المعبود ؟

بين ذلك سبحانه بقوله :{ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } فهو حي بذاته وقيوم بذاته وليس أحد غيره حياً بذاته حتى يُعبد مع الله ، وإن حي الذات يُحيي غيره ، والقيوم بذاته يقيم غيره.

فالله وحده هو الحي بذاته المحيي لغيره والقائم بذاته والمقيم لغيره .

ولقد قال سبحانه وتعالى :{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } وقال سبحانه في آية أخرى :(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } وقال سبحانه :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } فآياته ظاهرة في السماوات والأرض وكلها دالة على قدرته وعلمه وعظمته وحكمته سبحانه .

وليس للأشياء قوام من ذاتها بل كل شيء قائم بالله ولا غنى له عن الله ولا لحظة ، وحيثما نظر العبد نظر اعتبار في السماوات أو في الأرض فإنه سينتهي به الفكر إلى الله ، قال تعالى :

{ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ }

فما من شيء صغير أو كبير في هذا العالم السماوي أو الأرضي إلا ويدل على الله وعلى قدرته وتفرد سلطانه وقيوميته سبحانه .

وإن آيات الله ومشاهد قدرته وعظمته تتجلى وتظهر لمن تدبّر وتفكّر فإن هو أنصف آمن وأذعن ، وإن هو تكبَّر وجحد أعرض واتبع هواه .

قال تعالى : { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً } أي مهما عظمت { يُعْرِضُوا } عنها ولا يؤمنوا لأن مقصودهم اتباع الهوى وليس مقصودهم الاعتراف بالحق .

قوله تعالى : { لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ } هي غفلة أول النوم { وَلَا نَوْمٌ } فلا يعتريه النوم الخفيف ولا الثقيل ، فمن باب أولى أنه سبحانه منزه عن أن تصيبه آفة أوعاهة أو مرض أو عارض أو موت .

وإن في النوم تعطيلاً للإدراكات والحواس فكيف يصح له أن ينام سبحانه وهو الذي يدبر أمر السموات والأرض ؟ !

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

(إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور)

- وهذا الحجاب حُجبت به المخلوقات لأنها لا تتحمل أن تدرك الذات -

(لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) [1]

ولكي تفهم هذا الحديث الشريف خذ ما يقرب إلى فهمك :

فإن الذي حجبك عن إدراك الشمس إنما هو نورها ، وكذلك - ولله المثل الأعلى - فلو أن الله تعالى كشف حجابه النوراني لاحترقت المخلوقات التي انتهى بصرها إليه سبحانه

وإن ملائكة النهار يرفعون عمل ابن آدم بعد العصر قبل الليل ، كما أن ملائكة الليل ترفع أعمال الليل قبل طلوع الشمس كما جاء في الحديث :

(يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم :

كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون) - أي صلاة الصبح - (وأتيناهم وهم يصلون) [2] - أي صلاة العصر -

---

[1] انظره في صحيح مسلم كتاب الإيمان عن أبي موسى رضي الله عنه .
[2] صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة وصحيح مسلم كتاب المساجد واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وإن العارف بالله تعالى يلاحظ ذلك لما يصلي العصر أوالصبح فهو يلاحظ أن الملائكة الذين وُكِّلوا برفع أعماله يرفعون ذلك حين يشرع بالصلاة فيلاحظ أنه يودعهم ويستقبل غيرهم ، إما ملائكة الليل أو ملائكة النهار حسب صلاته للفجر أو للعصر .

قوله جل وعلا :{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } له ذلك مِلكاً ومُلكاً أي خلقاً ووجوداً وتصرفاً .

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ } : أي العلويات المحسوسات

{ وَمَا فِي الْأَرْضِ }: أي السفليات المحسوسة

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ }: أي الأمور المعنوية العقلية

{ وَمَا فِي الْأَرْضِ }: من الأمور المستنبطة الأرضية .

وهذا توحيد في الملك .

وأما توحيد الحكم فقال سبحانه :{ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } فالحكم لله وحده ، وأما ما هناك من الشفعاء والوسائل التي أقامها الله تعالى فلا سلطان لهم على الله تعالى وإنما يشفعون من بعد أن يأذن الله .

وفي هذا إثبات للشفعاء ولكن بإذن الله تعالى ، ونسأل الله تعالى أن يشفع فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } وفي هذا توحيد في العلم ، وفيه أيضاً إثبات لعلمه سبحانه وتجهيل لغيره ، فهو يعلم سبحانه { مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } مما سيجري عليهم في مستقبل الزمان . { وَمَا خَلْفَهُمْ } أي مما مضى عليهم وجرى عليهم .

{ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } : إما المراد : ولا يحيطون بعلم شيء من علمه بالأشياء إلا بما شاء لهم أن يحيطوا ، وإحاطتهم على قدرهم باعتبار أنهم مخلوقون

أو :{ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ } أي من المعلومات لله وهي الموجودات التي خلقها الله تعالى

{ إِلَّا بِمَا شَاءَ } أن يعلّمهم ذلك

{ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ } : وهو عالم الكرسي الجامع للعوالم كلها .

وعلى هذا : { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ } أي بعلم شيء { مِنْ عِلْمِهِ } أي من علمه بالأشياء { إِلَّا بِمَا شَاءَ } إعلامهم به .

أو : { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ } أي معلومه

{ إِلَّا بِمَا شَاءَ } أن يعلمهم من المعلومات .

{ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } أي : إلا بما شاء لهم أن يحيطوا ، وإحاطتهم بالشيء علماً هي على قدرهم ، يعني تناسب نشأتهم الخلقية المتناهية ، فهي إحاطة مخلوق ، وأما إحاطته سبحانه بالأشياء فمطْلقة غير متناهية .

{ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } قال ابن عباس :كرسيه : علمه [١]،

أو أنه إشارة لعالم الكرسي الذي جمع وتكرست فيه العوالم كلها

فقد ورد عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكرسي فقال :

(يا أبا ذر ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة [١])

---

[١] قال السيوطي في الدر المنثور : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى :
{ وسع كرسيه السماوات والأرض } قال : كرسيّه : علمه
ألا ترى إلى قوله تعالى :
{ ولا يؤوده حفظهما } .
وجاء في صحيح البخاري في كتاب تفسير القرآن : وقال ابن جبير :
{ كرسيه }علمه

ويسمى الكرسي : العالم الفرقاني ، إذ تتنزل فيه الأمور مفرقة ، فالعرش منزل التدبير ، والكرسي منزل التفصيل ، قال تعالى :

{ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ }

{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} في عالم العرش { يُفَصِّلُ الْآيَاتِ } في عالم الكرسي

{ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ }الآية .

فالتدابير الإلهية تتفصل في عالم الكرسي وتتنزل فرقانية ، وإن ملائكة عالم الكرسي مهيَّمون في الله تعالى ولا يعرفون إلا الله تعالى

قوله تعالى : { وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا } أي لا يثقل عليه سبحانه ولا يشقّ عليه أن يحفظ السموات والأرض وما فيها

{ وَهُوَ الْعَلِيُّ } العلو المنزه عن أن تدركه الإدراكات { الْعَظِيمُ } .

ولهذا فإن آية الكرسي سيدة آي القرآن وهي متبوعة غير تابعة ، جمعت مراتب التوحيد .

وأما سورة يس فهي قلب القرآن لما ورد :

(إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ، من قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات) [2]

ولما كان قلب الإنسان في منتصف جسمه فإن سورة يس أيضاً في النصف فليست من السور الطوال وليست من قصار السور فليست من المئين وليست مما دون ذلك من المفصّلات ، وهذا من حيث الشكل ، وأما من حيث المعنى فإن القلب يجمع خصائص الجسم كلها ،

---

[1] قال السيوطي في الدر المنثور : أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات

[2] عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى الدارمي والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان ، والحكيم عن أنس رضي الله عنه)

وكذلك فإن إخبارات القرآن المتنوعة من أمور غيبية وأخبار عن الأمم الماضية قد تناولتها سورة يس فهي قلب جامع .

ومن وظيفة القلب أيضاً التفكر والاعتبار من حيث المعنى ، وكذلك فإن سورة يس فيها التفكر والاعتبار إذ قال الله تعالى فيها :{ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ } { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ } { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا } ففيها مواضع التفكر ، فحق لقلب بصير أن يتفكر في قلب القرآن .

أما سورة { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } فتعدل ثلث القرآن ، لما روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ { قل هو الله أحد } ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء فذاك الذي أدخله ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال :
إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تعدل ثلث القرآن) . اهـ [١]
أي من حيث الثواب .

وذلك لأن فيها تجريد التوحيد أي فيها ذكر الله خالصاً، ولم يذكر فيها شيء من المكونات إلا بالمغايرة والتنزه ، بل ذكر سبحانه ذاته بالإثبات والصفات

{ قُلْ هُوَ } الذي لا يخفى على مكلف عاقل { اللَّهُ أَحَدٌ } ، { اللَّهُ الصَّمَدُ }

المصمود أي : المقصود والغني بذاته المفتقر إليه ما سواه .

{ لَمْ يَلِدْ } حِساً ، ولا ينفصل عنه جزء ، وليست نسبة العالم إليه كنسبة الولد إلى الأب ، بل نسبة العالم إليه نسبة مخلوق إلى خالق ، لأنه صمدٌ غني بذاته ، مفتقر إليه ما سواه ، فالذين افتقروا إليه هم مخلوقات وليسوا أجزاء ، ولو كانوا أجزاء لصاروا أغنياء مثله لأن ابن الرب رب وهكذا .

وليس الأمر كذلك بل هو { لَمْ يَلِدْ } سبحانه .

---

[١] كما في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ومسند الإمام أحمد ٩١٧٠

{ وَلَمْ يُولَدْ } حساً ولا عقلاً ، فلا تحدّ لله حدوداً في عقلك وتعبده على موجبها ، بل اعبد الله كما علّمك الله ، أي كما علمك الله في كتابه الكريم وأحاديث رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم

{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } فلا أحد يشابهه ويناظره .

ومن عجائب هذه السورة أنه سبحانه بدأها بالأحد وختمها بالأحد

{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } : أحديّته سبحانه

{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } : من المخلوقات .

والأحد الآخر - أي المخلوق - مفتقر إلى الأحد الأول

وهو الله سبحانه بدليل أنه خلقه بعد عدم .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟

قال : فشقّ ذلك على أصحابه فقالوا : من يطيق ذلك ؟

قال صلى الله عليه وسلم : يقرأ { قل هو الله أحد } فهي ثلث القرآن) [1]

وروى الترمذي عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد محي عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دَين) [2]
وروى الترمذي والبيهقي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ { قل هو الله أحد } مائة مرة فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب تبارك وتعالى :

يا عبدي ادخل على يمينك الجنة) [1]

---

[1] انظره في المسند ١٠٦٣١ بهذا اللفظ وهو في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن
[2] انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن بهذا اللفظ وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

ولما كانت { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } فيها تجريد التوحيد لله تعالى كان لها ذلك الأجر والثواب وأنها تعدل ثلث القرآن من حيث الثواب .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

---

[١] انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن وشعب الإيمان للبيهقي

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثامنة

في السنن القولية عقب الصلوات المكتوبة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين :

إن من جملة السنن القولية عقب الصلوات المكتوبة قراءة المعوذات لما روى النسائي وغيره عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال :

(أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ المعوذات دبر كل صلاة) [١] أي عقب كل صلاة مفروضة .

وجاء في بعض الروايات :

(أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ المعوِّذتين في دبر كل صلاة) [٢]

وهما سورتا الفلق والناس .

أما المعوذات فهي سورة { قل هو الله أحد } والمعوذتان بعدها .

وقال بعض المحققين : تشمل المعوذات سورة { قل يا أيها الكافرون } ذلك لأن فيها معنى الاستعاذة ، كما أن في { قل هو الله أحد } معنى التعوذ ، وفي سورة { قل يا أيها الكافرون } إخلاص العبادة لله وحده ، وفي سورة { قل هو الله أحد} إخلاص التوحيد لله تعالى .

---

[١] انظر سنن النسائي كتاب السهو والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي
[٢] كما في سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن بهذا اللفظ وهو في المسند ١٦٦٨٤

وقد تقدم بعض الكلام على خواص سورة { قل هو الله أحد }ومن جملة ذلك : ما روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجهني صاحب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(من قرأ { قل هو الله أحد } حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة ، فقال عمر بن الخطاب : إذن أستكثر يا رسول الله) - أي عشراً بعد عشر - (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكثر وأطيب) [1]

وفي رواية أخرى : (من قرأ { قل هو الله أحد } عشر مرات بني له بها قصر فى الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بني له بها قصران فى الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بني له بها ثلاثة قصور فى الجنة ، فقال عمر بن الخطاب : والله يا رسول الله إذا لتكثرنّ قصورنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أوسع من ذلك) [2]

أي أن جوده وعطاءه جل وعلا أعظم من ذلك.

والمعنى : من قرأ { قل هو الله أحد }معتقداً بها مخلصاً في تلاوتها بنى الله له قصراً في الجنة ، ومن بنى الله له قصراً في الجنة فقد ثبت الإيمان في قلبه وضمن له حسن العاقبة لأن ما بناه الله لا يهدم .

كما أن قراءة هذه السورة سبب لتيسير الأمر وتكثير الرزق ، فقد روى الطبراني عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من قرأ {قل هو الله أحد} حين يدخل منزله نَفَتِ الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران) [3].

---

[1] المسند ١٥٠٥٧

[2] انظر سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن واللفظ له وانظر المعجم الكبير للطبراني

[3] انظر المعجم الكبير للطبراني ومكارم الأخلاق للخرائطي

وروى البيهقي وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك ، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت فيما مضى ، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا جبريل ما لي أرى الشمس اليوم طلعت بضياء ونور وشعاع لم أرها طلعت فيما مضى ؟

فقال : ذاك أن معاوية بن معاوية الليثي مات بالمدينة اليوم - وكان قد بقي في المدينة لعذر - ، فبعث الله عز وجل إليه سبعين ألف ملكٍ يصلون عليه ، قال : وفيم ذاك ؟

قال : كان يكثر قراءة { قل هو الله أحد } بالليل والنهار ، وفي ممشاه وقيامه وقعوده ، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه ؟ قال : نعم ، قال : فصلى عليه - عن مشاهدة - ثم رجع [1]

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة :

أخرج الطبراني ومحمد بن أيوب بن الضريس في فضائل القرآن وسمويه في فوائده وابن منده والبيهقي في الدلائل كلهم من طريق محبوب بن هلال عن عطاء بن أبي ميمونة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

نزل جبرائيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد مات معاوية بن معاوية المزني أتحب أن تصلي عليه ؟ قال: نعم

فضرب بجناحيه فلم يبق أكمة ولا شجرة إلا قد تضعضعت فرفع سريره حتى نظر إليه فصلى عليه وخلفه صفّان من الملائكة كل صف سبعون ألف ملك فقال: يا جبرائيل بم نال معاوية هذه المنزلة ؟

قال: بِحُبِّ { قل هو الله أحد } وقراءته إياها جائياً وذاهباً وقائماً وقاعداً وعلى كل حال . [2]

---

[1] انظر شعب الإيمان للبيهقي ومسند أبي يعلى الموصلي

[2] انظر الإصابة ٣ / ١٠٥ وقد ترجم الحافظ الصحابي المذكور فقال :
معاوية بن معاوية المزني: ويقال : الليثي.

وإن سورة الفلق والناس هما أعظم التعويذات والتحصينات ، لما روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط :

{ قل أعوذ برب الفلق } و{ قل أعوذ برب الناس }) [1]

وفي رواية للنسائي عن ابن عابس الجهني رضي الله عنه
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له :

(يا ابن عابس ألا أدلّك - أو قال : ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟

قال : قلت : بلى يا رسول الله

قال : { قل أعوذ برب الفلق } و { قل أعوذ برب الناس }

هاتين السورتين) [2]

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ من الجان ومن عين الحاسد من الإنسان فلما نزلت هاتان السورتان أخذ بهما وترك ما سواهما [3].

ثم قال الحافظ عن الحديث : وأخرجه بن سنجر في مسنده وابن الأعرابي وابن عبد البر ورويناه بعلوّ في فوائد حاجب الطوسي كلهم من طريق يزيد بن هارون وأخرجه أبو أحمد الحاكم في فوائده والطبراني في مسند الشاميين والخلال في فضائل قل هو الله أحد وابن عبد البر جميعاً من طريق نوح فذكر نحوه وفيه : فوضع جبرائيل جناحه الأيمن على الجبال فتواضعت حتى نظرنا إلى المدينة.

[1] في كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[2] انظر سنن النسائي كتاب الاستعاذة والمعجم الكبير للطبراني

[3] كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:
كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان ، حتى نزلت المعوذتان، فأخذ بهما وترك ما سواهما .
والحديث رواه الترمذي وحسّنه والنسائي وابن ماجه والضياء في المختارة وصححه، كما في شرح المواهب .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه أنه قال :
خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي لنا فأدركناه فقال : أصلّيتم ؟

فلم أقل شيئاً ، فقال : قل ، فلم أقل شيئاً ، ثم قال : قل ، فلم أقل شيئاً ، ثم قال : قل ، فقلت : يا رسول الله ما أقول ؟

قال : قل { قل هو الله أحد } والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفك من كل شيء) [١]

وذلك لأن فيهما التعوذ بالله والالتجاء إليه سبحانه طلباً للحفظ من كل الشرور والمكاره .

أما قوله جل وعلا :{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } ولم يقل الله تعالى :(أعوذ) فقد قال أبي بن كعب رضي الله عنه : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال لي جبريل : { قل أعوذ برب الفلق } فقلتها ، وقال لي : { قل أعوذ برب الناس } فقلتها [٢]

وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم يبلّغ كلام الله كما أمره الله تعالى ولا تحكّم له فيه صلى الله عليه وسلم .

ومعنى :{ أَعُوذُ } : ألجأ وأتحصّن وأحترز كما قال بعضهم :

يا من ألوذ به فيما أؤمِّله ... ومن أعوذ به ممن أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره [٣]

---

[١] انظر سنن أبي داود كتاب الأدب وسنن النسائي كتاب الاستعاذة والمسند ٢١٦١٢
[٢] انظره في صحيح ابن حبان كتاب الرقائق بهذا اللفظ وأصله في صحيح البخاري كتاب الرقاق
[٣] قال في القاموس المحيط : هاض العظم يهيضه : كسره بعد الجبور

{ الْفَلَقِ } يعني الفليقة وهي الخليقة ، وما من شيء مادي مخلوق إلا وهو من غيره مفلوق ، كما أخبر سبحانه عن خلق الماديات والمعنويات :

{ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ }الآية

فلقد فلق سبحانه الحبة وأخرج منها زرعاً أخضر ذا سنابل وأوراق وفروع ، وأخرج الشجرة من النواة وهي العجمة كعجمة التفاحة والتمر وغيرهما من الثمار .

ولو أنك دققت ونظرت نظر العارفين لرأيت أن هذه الشجرة بفروعها وأغصانها وأوراقها موجودة في بطن تلك النواة ، فللشجرة وجودان : إجمالي في بطن تلك النواة ، وتفصيلي لما تراها شجرة ، وهكذا سبحانه يفصّل الأمور ويستخرج شيئاً من شيء ، وكما يفصل الكاتب ما أراد بيانه من معان في نفسه يفصّله بحبر كان مجملاً في الدواة - ولله المثل الأعلى - ، فكل إنسان كان مجملاً في النطفة ثم فصّله الله تعالى تفصيلاً بعد تفصيل كما هو معروف فقد فصّله إلى علقة ثم إلى مضغة ثم جعلهُ جنيناً ، وكل حالة تعتبر تفصيلاً لما قبلها وإجمالاً لما بعدها ، وإن كل عالم بالنسبة للعالم الذي قبله إنما هو تفصيل ، وكل عالم بالنسبة لما بعده إجمال ، وذلك حتى تعلم سعة قدرة الله تعالى وسعة علمه وحكمته .

قوله تعالى : { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } أي يخرج الحي الحسي المادي من الميت الحسي المادي ، فهو يخرج هذا الإنسان ذا الحياة والمدارك والحواس من تلك النطفة الجامدة ، ويخرج الدجاجة من تلك البيضة الميتة ، ويخرج الشجرة التي فيها حياة النمو من تلك النواة الجامدة ، وكذلك فهو سبحانه يخرج الميت من الحي ، فهو يخرج النطفة من الإنسان ، ويخرج البيضة من الدجاجة ، ويخرج النواة من الشجرة الحية بحياة النمو ، وهكذا يخرج الشيء من ضده ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده .

كما أنه سبحانه يخرج الحي - أي الحي بالحياة الإيمانية القلبية - يخرجه من الإنسان الكافر الميت القلب وبالعكس .

فقوله تعالى :{ يُخْرِجُ الْحَيَّ } أي بنوع من أنواع الحياة سواء كانت حياة نمو أو إحساس و مدارك أو حياة قلب إيمانية يخرجه { مِنَ الْمَيِّتِ } بنوع من أنواع الموت { وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ } أي هذا هو الله الذي يقدر على هذا كله { فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } أي أين تصرف عقولكم فتعبدون غيره أو تعتمدون على غيره أو تستعينون بغيره أو تلجؤون إلى غيره والحال أنه هو سبحانه المتصرف بكل هذا ؟!

قوله تعالى : { فَالِقُ الْإِصْبَاحِ } بعدما ذكر سبحانه الماديات والمحسوسات كالحب والنوى ذكر سبحانه المدركات المعنوية ، والإصباح هو نور الصباح ، وهذا أمر مدرَك معنوي ، فكما أنه سبحانه يستخرج الماديات من الماديات يستخرج أيضاً المعنويات من المعنويات فهو يخلق نور الصباح من بطن ظلمة الليل فيشق ظلام الليل بنور النهار ، ولهذا قال تعالى :

{ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ }

فهو سبحانه يخرج الشيء من ضده .

وعلى هذا فإن قوله تعالى :

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } أي برب الفليقة وهي الخليقة أي رب الخلق كلهم .

{ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } : أي من شر كل شيء خلقه وله شر ، وليس معنى الآية أن كل شيء خلقه الله تعالى له شر ، وإنما نستعيذ بالله من شر كل شيء خلقه وله شر ، أما ما لا شر له فلا يدخل تحت هذه الاستعاذة .

فالأنبياء كلهم صلوات الله عليهم كلهم رحمة وخير ولا يتأتى منهم إلا الخير ، وكذلك الملائكة عليهم السلام والجنة وما فيها من الخيرات .

وإذا قيل كيف لا يتأتى من الملائكة إلا الخير وقد ورد أنهم يدعون على البخيل بالتلف كما في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) [1]

فاعلم أن المراد بالتلف في الحديث : أن يتلف ماله في الخير ، أو أن المراد : أن يتلف الله ماله حتى تسهل عليه المسؤولية ويخف عنه العذاب المترتب على إصراره على البخل ، وهذا سعي في الخير .

{ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ } : أي من شر ظلمة الليل إذا أقبلت .

والغاسق هو الليل ، ومعنى وقب : أقبل ودخل ، كما في الآية { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ } أي إلى ظلمة الليل .

وهذه استعاذة من شر الظلمات المقبلة ، أما الشرور التي تنشأ عن ظلمة الليل فقد روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر فقال :

(يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب) [2]

ولا ينافي هذا أن الغاسق هو ظلمة الليل لأن القمر آية من آيات الله في الليل ، قال تعالى :

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً }
وآية الليل هي القمر إذ جعلها الله ممحوة فجعل القمر منيراً لكن يستمد نوره من الشمس ، فلما كان القمر آية من آيات الله دخل تحت حكم الليل .

وعلى هذا : فلما يقبل الليل بظلامه فهناك شر يستعاذ منه ، ولما يغيب القمر في الليل وتقبل الظلمة فهذا غاسق إذا وقب ويستعاذ من شره أيضاً .

[1] صحيح البخاري كتاب الزكاة وصحيح مسلم كتاب الزكاة .
[2] انظر سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن والمسند ٢٤٨٠٧

وفي الحديث المتفق عليه عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(إذا كان جنح الليل أو أمسيتم) - أي إذا مد الليل جناحه أي طرفه ودخل في العالم - (فكفّوا صبيانكم فإن الشيطان ينتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من الليل فخلّوهم وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً) - أي مغلقاً باسم الله -(وأَوْكُوا قُرَبكم واذكروا اسم الله وخمِّروا آنيتكم واذكروا اسم الله ولو أن تعرضوا عليها شيئاً وأطفئوا مصابيحكم) [١]
وذلك لأن الأرواح الشيطانية المظلمة لا يناسبها ولا يوافقها إلا الأوقات المظلمة والأماكن المظلمة ، فربما تضر الصبي عند انتشارها بصرع أو غشية أو نحو ذلك .

ومثال ذلك كالميكروب الذي لا يعمل عمله إلا في الموضع المظلم العفن البعيد عن نور الشمس ، وكذلك الأرواح الخبيثة ، ولذلك أمرنا الله تعالى أن نستعيذ من شر غاسق إذا وقب .

ولما جاء الأعرابي يسأل مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة قال له :

[كيف يأتيك الذي يأتيك] ؟

فقال مسيلمة : [يأتيني في ظلماء حندس] - أي في وقت ظلام دامس - ، فذهب الأعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله :

[كيف يأتيك الذي يأتيك] ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (يأتيني في مثل ضوء النهار) .

فعرف الأعرابي صدق النبي صلى الله عليه وسلم وكذب مسيلمة ، وأن الذي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ملَك ، وأن الذي ينزل على مسيلمة شيطان خبيث [٢]

قال تعالى :

{ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ }

---

[١] انظر صحيح البخاري ومسلم كتاب الأشربة
[٢] انظر بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ٤٨٣

ولا يتسع للشيطان إلا ظلام الليل للتناسب بينهما .

وقد ضرب الله تعالى مثلاً لنور الإيمان في قلب المؤمن كمصباح في زجاجة ، وضرب مثلاً لكفر الكافر فقال سبحانه :

{ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } الآية

وقال تعالى : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } الآية

قوله تعالى { وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } أما النفاثات فهي النفوس والأرواح التي تنفث في العُقد من ذكور وإناث كما هو شأن السحرة ، ونعوذ بالله من شرهم .

والنفث هو النفخ مع شيء من الريق ، فهؤلاء السحرة يتلون بعض كلمات فيها خبث وفساد ويستعينون بشياطين الجن ثم ينفثون على عقدة يعقدونها فيضرُّون من توجهوا عليه بهذا العمل الخبيث ، وهذا لأن التكيفات النفسية لها ضرر بالغير .

ويقال لمن أنكر ذلك وأنكر الحسد والعين : إن المباني تتأثر بالمعاني ، فلو سابَّك إنسان أو شتمك لتأثرت نفسك وغضبت وظهر أثر ذلك على وجهك وجسمك مع أنه لم يضربك وإنما تكلم معك كلاماً ، وكذلك الحال في الفرح والرضا والكلام الطيب فالكَلام له كِلام أي تأثير .

وإذا تكيّفت نفس المؤذي بالأذى والغضب تراه يلدغ ويؤذي من أصابه كالثعبان والعقرب ، وربما تكيَّفت نفس امرأة بالغضب فأثَّر على حليبها وأضرّت بولدها الرضيع ، وعلى هذا فلا تنكر أثر التكيفات النفسية على الأجسام الإنسانية ، وافهم أثر السحر والعين والحسد على الإنسان ، وكلُّ ذلك بإذن الله تعالى كما قال سبحانه :

{ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } .

وقد نزلت هاتان السورتان (الفلق والناس) لمّا سُحر النبي صلى الله عليه وسلم ، كما روى البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم أحاديث كلها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم سُحِر ، ومن جملة هذا ما ورد في الصحيحين عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :

(سُحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه ليخيّل إليه أنه فعل الشيء وما فعله)[1]- أي وهو يعلم يقيناً أنه ما فعله - فلم يؤثر السحر في قلبه وعقله صلى الله عليه وسلم بل أثّر في جسمه الشريف كما يؤثر فيه المرض إذا مرض أحياناً صلى الله عليه وسلم ، ولم يمنعه ذلك عن أداء الرسالة وتبليغ الدعوة وعن السؤال والجواب بل كان يخيّل إليه أنه فعل هذا الشيء وهو على يقين أنه ما فعله ، وذلك لأن الله تعالى عصمه عن كل ما يحول بينه وبين أداء الرسالة والدعوة قال سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتخذ له حراساً يحمونه من مكائد اليهود في المدينة وغيرهم من المنافقين والمشركين ، فلما نزلت عليه آية العصمة :
{ والله يعصمك من الناس } قال صلى الله عليه وسلم للحراس :
(يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله تعالى)[2].

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها :

حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم دعا ثم قال :

(يا عائشة شعرتِ أن الله عز وجل قد أفتاني فيما استفتيته فيه ؟)

- وكان صلى الله عليه وسلم قد سأل الله تعالى أن يدلّه على طريق الخلاص من هذا السحر والبلاء -

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الطب وصحيح مسلم كتاب السلام

[2] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن ومستدرك الحاكم كتاب التفسير .

(جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي :

ما وَجَع الرجل ؟)

- وهو سيد الرجال صلى الله عليه وسلم -

(قال : مطبوب ، قال : مَن طبّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة وجفّ طلعة ذكر)

- والمشاطة بِضَم الْمِيم وَتَخْفِيف الشين هي مَا يخرج من الشّعْر عِنْد التسريح ، والجف هو وعَاء طلع النّخل وَهُوَ الغشاء الَّذِي يكون عَلَيْهِ -

(قال : وأين هو ؟ قال : في بئر أروان .

قالت : فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه ثم جاء فقال : يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رءوس الشياطين ، قالت : قلت : يا رسول الله فهلا أحرقته ؟) - والمراد إحراق السحر -

(قال : لا أما أنا فقد عافاني الله عز وجل وكرهت أن أثير على الناس منه شراً ، قالت : فأمر بها فدفنت) [1]

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح :

فذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى البئر فنظر إليها ثم رجع إلى عائشة فقال " وفي رواية عمرة عن عائشة " فنزل رجل فاستخرجه " وفيه من الزيادة أنه " وجد في الطلعة تمثالاً من شمع ، تمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا فيه إبر مغروزة ، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة ، فنزل جبريل بالمعوذتين ، فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، وكلما نزع إبرة وجد لها ألما ثم يجد بعدها راحة " ، وفي حديث زيد بن أرقم الذي أشرت إليه عند عبد بن حميد وغيره " فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين " وفيه " فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية ، فجعل يقرأ ويحل حتى قام كأنما نشط من عقال "

---

[1] انظره في المسند ٢٣١٦٥ بهذا اللفظ وأصله في الصحيحين كما تقدم

وعند ابن سعد من طريق عمر مولى غفرة معضلاً " فاستخرج السحر من الجف من تحت البئر ثم نزعه فحلّه فكُشِف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " [1]

وقد أنكر بعضهم سحر النبي صلى الله عليه وسلم واحتجوا بقول الله تعالى مخبراً عن الكفار قولهم :{ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا }

وقالوا : فلو سُحر رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحَّ قول الكفار فيه صلى الله عليه وسلم .

فيقال في الجواب :

إن مراد الكفار من قولهم { إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} أي مسلوب العقل كما كانوا يتهمونه أحياناً بالجنون - حاشاه صلى الله عليه وسلم من كل وصف لا يليق به - ، لكن السحر الذي أصابه صلى الله عليه وسلم لم يؤثر على عقله وقلبه وروحه صلى الله عليه وسلم بدليل تنزل القرآن والوحي عليه واستمراره في الدعوة وتبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً فاستخرج تلك العقد من البئر وزال عنه ذلك السحر الذي أثر على جسمه الشريف صلى الله عليه وسلم كتأثير المرض عليه صلى الله عليه وسلم حين يمرض أحياناً .

واعلم أن السحر الذي جرى عليه صلى الله عليه وسلم هو من أعظم الدلائل على أنه صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقاً ، إذ إنه صلى الله عليه وسلم لمّا يريهم المعجزات وخوارق العادات يقولون عنه : هو ساحر ، ولما يذكر لهم الآخرة والحشر وما هنالك يقولون عنه : هو مجنون ، فلو كان ساحراً على زعمهم لكان أسْحَرَ أهل الأرض كما قالوا لمّا شق لهم القمر

---

[1] ١٦/ ٢٩٦

{ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } وإذا كان هو صلى الله عليه وسلم أسحر أهل الأرض فكيف يؤثّر عليه سحر غيره ، لأن الساحر يردّ السحر عن نفسه بسحر آخر ، فلمّا أثّر عليه السحر صلى الله عليه وسلم دل على أنه صلى الله عليه وسلم لا علم له بشيء من السحر وفي ذلك بطلان لدعوى اليهود والمشركين بأنه صلى الله عليه وسلم ساحر .

روى الإمام أحمد في مسنده عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال :
لقيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتدأته فأخذت بيده، قال: فقلت:
يا رسول الله، ما نجاة المؤمن ؟ - أي كيف يخرج المؤمن من الدنيا ناجياً - ؟قال: (يا عقبة، أخرِس لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)
قال: ثم لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتدأني فأخذ بيدي، - على عادته صلى الله عليه وسلم في ملاطفة ومؤانسة أصحابه لمّا يريد إكرامهم ونصحهم - فقال : (يا عقبة بن عامر، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم) ؟
قال: قلت: بلى، جعلني الله فداك ، قال: فأقرأني { قل هو الله أحد } و{ قل أعوذ برب الفلق} و{ قل أعوذ برب الناس } ثم قال :
(يا عقبة، لا تنسَهنَّ ، ولا تَبِتْ ليلة حتى تقرأهن)
قال: فما نسيتهن قط منذ قال : لا تنسهن ، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن "
قال عقبة: ثم لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتدأته فأخذت بيده
فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال - أي أفضلها -

فقال:(يا عقبة صل من قطعك وأعط مَن حَرَمَك وأعرض عمن ظلمك) [1]

وروى الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما { قل هو الله أحد } و{ قل أعوذ برب الفلق } و { قل أعوذ برب الناس } ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات [2]

[1] انظر المسند ١٧٣٣٤
[2] صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

وجاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث فلما اشتد وجعه - أي مرِض مرَض الوفاة - قالت السيدة عائشة :

كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بَرَكَتِها [١]

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين .

[١] كما في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن وصحيح مسلم كتاب السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة التاسعة

حول تفسير سورة (قل أعوذ برب الناس)

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

لقد ذكر الله سبحانه في هذه السورة ثلاث أسماء من أسمائه سبحانه ، وتعتبر من جوامع الأسماء الإلهية يعني أن كل اسم منها قد اشتمل على عدة أسماء إلهية .

أما معنى الرب : فتطلق لغة على الشيء الثابت ، ويراد بها السيد ، والرب هو المالك ، والرب هو المربي ، والرب هو المتولي المصالح والشؤون .

فلما تطلق كلمة الرب دونما إضافة فهي تدل على أنه سبحانه الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير وله الأزل والأبد ، فهو الثابت وجوداً فلا أوّل لأوّليته ، ولا آخر لآخِريّته ، وما من شيء إلا والله قبله ، وما من آخر إلا والله بعده .

ولما يضاف هذا الاسم إلى مخلوقاته سبحانه مثل:

{ رب العالمين } ، { رب المشرق والمغرب }، { رب الناس }، { رب السماوات والأرض وما بينهما }، فقد يتناسب مع هذه الإضافات بعض معاني الرب ، فيأتي معنى الرب في بعض الآيات المربي ، أو مصلح الشؤون أو من له السؤدد ، وإن كانت كلها صفات ثابتة لله تعالى ، لكن سياق الآية يرجح بعض المعاني .

أما معنى { برب الناس } : أي : مالك الناس وسيد الناس ومربي الناس ومصلح شؤون الناس ، وإنما ذكر هذا خاصة حتى يتفكر هذا الإنسان الذي هو من بني الناس ويعتبر في تربية الله تعالى له وفي تدبير الله تعالى له وفي تصرف الله تعالى فيه وفي مالكية الله تعالى له ، فهو الرب سبحانه يربّي الناس من حيث الجسم ، ويربيهم من حيث الروح ، ويربيهم من حيث العقل ، ويربيهم من حيث التفكير ، فهو ربهم من كل وجه واعتبار ،

وهو رب العالمين كلهم من حجر وشجر ومدر ، ولولا تربية الله وإمداده للشجر لما استقام الشجر ، ولولا تربيته وإمداده للحجر لتلاشى الحجر ، فهو ربها الذي خلقها ولا تزال في تربيته سبحانه .

والرب هو المصلح : فهو سبحانه مصلح أمر مربوبيه على موجب علمه وحكمته سبحانه وتعالى ، ولما كان الرب هو المصلح والسيد والمربي فقد تعلق أولو الألباب في دعائهم ورجائهم بحضرة الربوبية لأنه سبحانه مربيهم ومصلح شؤونهم ومالكهم وسيدهم ، فالمالك أحق بالمملوك ، والسيد أحق بالعبد ، والمربي أحق بالمُربَّى ، ولهذا لجأ إليه أولو الألباب في دعائهم وحاجاتهم وجعلوا يقولون : [ربنا ربنا ربنا] .. كما في أواخر سورة آل عمران .

وقد ذكر الله تعالى عن أنبيائه صلوات الله عليهم أنهم حينما يدعونه ويسألونه يتوجهون إليه باسم الرب لما علموا أنه أحالهم إلى هذا الاسم في الدعاء الذي ذكره سبحانه في كثير من الآيات القرآنية .

ومن ذلك قوله تعالى :{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } فقد فهموا من قوله تعالى :{ رَبُّكُمُ } أنه أحالهم في السؤال والدعاء إلى حضرة الربوبية .

وأخبر سبحانه عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في دعائه :

{ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ }

{ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ }

{ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ }

وأخبر سبحانه عن أولي الألباب كما في آخر سورة آل عمران :

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } الآيات .

وقوله تعالى مخبراً عن أولي الألباب :

{ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا } وهذا المنادي هو رب العزة سبحانه وتعالى ، فلقد نادى العباد في مختلف العوالم ، فناداهم في عالم الذر ، وناداهم لما جاؤوا إلى الدنيا بكلامه ، وناداهم على لسان رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال بعض السلف :

{ سَمِعْنَا مُنَادِيًا } أي محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو المنادي عن الله والداعي بدعوة الله [1]، كما قال تعالى :

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }.

ولما ناداهم سبحانه في عالم الذر قال لهم :{ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا : بَلَى}

أي : ألست برب خالق مالك لكم ؟

فلما شاهدوا حاجة وجودهم إلى الله تعالى اعترَفوا وأقرّوا ، إذ لم يكن هناك عند أخذ العهد عليهم لم يكن حجاب فلم يسعهم إلا الإقرار والاعتراف بربوبية الله تعالى عليهم لما علموا وشاهدوا فقْرهم الذاتي إلى الله تعالى .

---

[1] قال الإمام الآلوسي في تفسيره :
والمراد بالمنادي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس وابن جريج واختاره الجبّائي وغيره

ولما جاؤوا إلى هذا العالم الدنيوي التكليفي حُجبوا عن المشاهدة التي شاهدوها في ذلك العالم لأن هذا العالم الدنيوي قائم على التكليف والامتحان ولا يكون هذا إلا من وراء حجاب ، وهذا لأن قضايا الإيمان قائمة على التصديق بالغيب ، وأما لو كانت هذه المغيبات مشهودة لَمَا وسع أحداً إنكارها ، ولكن لما غابت وأمر بالإيمان بها هناك من أنكر وهناك من آمن .

وهو سبحانه فضلاً منه ورحمة نصب الدلائل والشواهد على إثبات قضايا الغيب وأرسل المرسلين عليهم السلام بالبينات العقلية والكونية ليُقيموا الحجة والبرهان على الناس ويثبتوا لهم حقيّة قضايا الإيمان ، حتى استوى عند العقلاء المشهودات والمغيَّبات وصاروا يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة .

قوله تعالى : { أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ } من حيث إنه رب خالق موجِد ، ومن ناحية أنه رب حكيم ، وهذا يعني أن تؤمن بالله تعالى رباً أي خالقاً موجِداً مدبِّراً وتؤمن به رباً حكيماً شرع لعباده شريعة فيها مصالح آخرتهم ودنياهم ، وعليك أن تتقبل هذا الشرع وترضى به وتتحقق به أمراً ونهياً ، وإلا فأنت غير مؤمن بربك الذي أوجدك ، فقد أقسم سبحانه بربوبيته على الإنسان أنه لا يؤمن حق الإيمان بربه إلا إذا استسلم لدينه وشرعه وحكمه ، قال تعالى { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } .

وقد أقسم سبحانه بربوبيته الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

{ فَلَا وَرَبِّكَ } أي لأنك يا محمد صلى الله عليه وسلم ظهرت لك حِكم الله في أحكامه وشرعه ، وقد أدركت حكمة الله وسره في شريعته ، وأما غيرك فقد تخفى عليه حكمة الله في أوامره وقد يظهر له شيء منها ، فيجب عليهم أن يستسلموا لذلك وإن لم يعلموا سر وحكمة أحكام الله في شرعه لأن الذي شرع الشريعة عليم حكيم وله الحكمة المطلقة .

{ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ } أي يجعلوك حكماً ومرجعاً فيما اختصموا فيه

{ ثُمَّ } أي بعد التحكيم { لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ } أي قلوبهم

{ حَرَجًا }أي ضيقاً أو عنَتاً أو كراهية { مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } أي تسليماً كاملاً لما قضيت به - وهذا يعني الاستسلام لشرع الله تعالى - .

ولما وقف أولو الألباب هذا الموقف من حضرة الربوبية وقالوا : ربنا ربنا .. أتاهم الجواب من حضرة الربوبية { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ } لأنهم عباده وهو أحق بهم سبحانه وتعالى .

وقد روى ابن أبي الدنيا وغيره قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا قال العبد : يا رب يا رب يا رب ، قال الله تعالى له : لبيك يا عبدي سل تُعْطَ) [1] .

وروى يزيد الرَّقاشي عن أنس رضي الله عنه قال :

ما مِنْ عبدٍ يقول : [يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ]

إلا قال له ربُّه : (لبيك لبيك) [2].

وفي بعض الآثار أن موسى عليه السلام قال مرة : (يا رب) فأجابه الله تعالى (لبيك يا موسى) فعجب موسى عليه السلام من ذلك وقال :
(يا رب أهذا لي خاصة) ؟
فقال جل وعلا :
(لا ولكن لكل من يدعوني بالربوبية) . [3]
قوله تعالى :{ مَلِكِ النَّاسِ } أي المتصرف فيهم ، فهو سبحانه المالك والملِك ومالك المُلك والمَلِيك وذو الملك والملكوت ، وكل اسم له دلالته وإن كانت معاني الأسماء متلازمة .

---

[1] عزاه المناوي في فيض القدير إلى ابن أبي الدنيا و أبي الشيخ وابن حبان والديلمي عن السيدة عائشة مرفوعاً وموقوفاً

[2] انظر كتاب حول تفسير سورة الفاتحة للشيخ الإمام وكتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي في الحديث العاشر منه

[3] انظر تفسير الآلوسي لقول الله تعالى :
{ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ }
وروى الإمام أحمد في الزهد وابن عساكر في تاريخ دمشق عن عطاء قال :
طاف موسى عليه السلام بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، وهو يقول : اللهم لبيك فأجابه ربه تبارك وتعالى : (لبيك يا موسى ، ها أنا ذا لديك)

أما معنى المَلِك : فهو المتصرف والمدبِّر شؤون رعيته ، فهو سبحانه يتصرف في مخلوقاته تصرفاً في الأمور الكونية ، ويتصرف فيهم في الأمور الشرعية بشرع الشرائع وبإنزال الكتب وإرسال الرسل .

أما التصرف الكوني فقد قال تعالى :

{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

وأما التصرف الشرعي فظهر ذلك في شرعه وأحكامه جل وعلا ، وهو ما شرعه على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ }.

فهناك تصرف في عباده سبحانه يظهر في الخفض والرفع والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة وما هنالك ، قال تعالى :

{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ }

- أي التصرف في المحسوسات -

{وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ..}

ويشمل هذا العطاء والمنع :

الملك في المقامات والمراتب فهو سبحانه يخصُّ بولايته من يشاء وينزعها ممن يشاء ، وينزل الرسالة والنبوة على من يشاء ولا ينزلها على من لا يشاء ، والأمر كله بيده جل وعلا .

ولما اعترض كفار قريش على إنزال الرسالة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا كما أخبر سبحانه عنهم :

{ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }

- أي على رجل غني وذو جاه وشهرة من أهل مكة أو الطائف –

نزل قوله تعالى :

{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ..} الآية .

ولا ينافي نزول هذه الآية في الأمور الحسية المادية نزولها في الأمور المعنوية الروحية فقد يكون للآية الواحدة عدة أسباب في نزولها .

قوله تعالى : { بِيَدِكَ الْخَيْرُ } ليبيِّن أن تصرفه سبحانه في المنع والعطاء والإعزاز والإذلال كل هذا قائم على حكمته وعلمه سبحانه ، ولا سوء ولا نقص ولا عيب فيه ، بل كله خير لأنه صادر عن حكمته سبحانه .

وقد روى ابن أبي الدنيا وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن ربه تعالى وتقدَّس قال :

(إن من عبادي المؤمنين لَمَنْ يسألني الباب من العبادة فأكفّه عنه ، ولو أعطيته إياه لدخله العجب وأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرتُه لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك ، إني أدبِّر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير) [1]

وإن العليم الخبير لا يُعترض عليه ، ألا ترى أن الطبيب يصف الدواء المر لشخص والدواء الحلو لشخص آخر ، وما أراد إلا الخير بهما ، لأن مزاج الأول يقتضي هذا ومزاج الآخر يقتضي غير ذلك ، وكل هذا تابع لعلم الباحث بالطب وصحة حكمته تكون على صحة علمه ، فما بالك إذاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بمن له العلم كله والحكمة كلها وهو العليم الحكيم سبحانه وتعالى ؟!!

---

[1] عزاه السيوطي في الجامع الكبير لابن أبي الدنيا فى كتاب الأولياء ، والحكيم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء ، وابن عساكر

قوله سبحانه وتعالى :{ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ }

: فهو سبحانه يخرج الإنسان الحي من النطفة الجامدة ، ويخرج الشجرة الحية بالحياة النباتية من الحبة أو العجمة الجامدة ، ويخرج المؤمن الحي بالحياة الإيمانية القلبية من الكافر الميت قلبه .

وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم قبض من طينته قبضتين ، قبضة بيمينه وقبضة باليد الأُخرى ، فقال للذي بيمينه : هؤلاء إلى الجنة ولا أُبالي ، وقال الذي في يده الأُخرى : هؤلاء إلى النار ولا أبالي) - أي لأني عليم حكيم - (ثم ردَّهم في صلب آدم فهم يتناسلون على ذلك إلى الآن) . [1]

وقد جاء في فضل هذه الآية { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ..}

ما رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران:

{ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء} الآية) [2]

أي فمن أراد الدعاء بالاسم الأعظم فليقرأ هذه الآية ثم يسأل الله ما يريد .

ومن خصائصها تفريج الكروب والشدائد ، فقد روى الطبراني بالسند الجيد عن أنس رضي الله عنه أن معاذاً رضي الله عنه شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ديناً أَثْقَلَه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(يا معاذ، ألا أعلمك دعاء تدعو به ؟ فلو كان عليك من الدين مثل جبل صِبِر أدّاه الله عنك) - وصبر جبل باليمن -

---

[1] عزاه في مجمع الزوائد إلى البزار والطبراني في الكبير والأوسط

[2] انظر المعجم الكبير وقال في مجمع الزوائد :
رواه الطبراني في الصغير ورجاله ثقات

(فادع به يا معاذ ، قل: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}

رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطي من تشاء منهما، وتمنع من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك) [1]

وكما أن الله تعالى مُلكٌ له التصرفُ في مخلوقاته كما تقدم ، فله سبحانه الأمر والنهي أيضاً ، فقد شرع لعباده ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }

أي ما خلقناكم وتركناكم هَمَلاً بلا أمر ولا نهي ولا شريعة تُصلح أمور معاشكم وآخرتكم ودنياكم

{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } أي تنزَّه الله تعالى عن فعل ذلك لأنه سبحانه مَلِك حق ولا يخلق إلا بالحق ولا يتصرف بخلقه إلا بالحق وليس من شأن الملك الحق أن يخلق مملكة ولا ينظم أمورها .

{ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ }

أي من ادعى أن مع الله إلهاً آخر فليأت ببرهان على ذلك .

وقل لمن ادعى أن عيسى ابن الله ، قل له أن يأتي ببرهان على ذلك !

وما دام تعدد الآلهة جائزاً عنده فما هو وجه الحصر العقلي أنهم ثلاثة وليسوا أكثر ؟!

أما البرهان على أن الإله واحد فبرهان قائم ولابد منه ، وأما الزيادة فلا حاجة لها ولا برهان عليها ، وعلى هذا فإن العقل يثبت أنه لابد من إله واحد أحد .

---

[1] انظر المعجم الكبير للطبراني

ومن خصائص هذه الآيات :
{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ }
من خصائصها ما رواه الطبراني وأبو يعلى وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ في أذن رجل مريض هذه الآيات فبرأ من ساعته .
فقال صلى الله عليه وسلم :(لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال) .[١]
وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائد احدى السرايا التي أرسلها أمره أن يقرأ على سَرِيَّته هذه الآيات صباحاً ومساءً ، وكانت سبباً لحفظهم ونصرهم [٢].
وهو سبحانه المالك : قال تعالى :{ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } ، وفي قراءة متواترة { ملك يوم الدين } [٣]وهما اسمان متلازمان كما قال سبحانه :
{ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }.
فهو سبحانه يمدح نفسه بأن المُلك له وأنه المالك .
وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى :
(أنا الملِك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟)[٤]
وروى الإمام أحمد والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر :
{ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون }

---

[١] انظر الدعاء للطبراني ومسند أبي يعلى الموصلي وعمل اليوم والليلة لابن السني والدعوات الكبير للبيهقي
[٢] كما في الحديث عن ابراهيم بن الحارث التيمي رضي الله عنه قال :
وجَّهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية ، فأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً .... } فقرأناها فغنمنا وسلمنا.
قال في كنز العمال :
رواه أبو نعيم في المعرفة وابن منده ، وسنده قال في الاصابة : لا بأس به.
[٣] قال ابن الجزري رحمه الله في النشر في القراءات العشر :
اختلفوا في { مالك يوم الدين } فقرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف بالألف مداً. وقرأ الباقون بغير ألف قصراً
[٤] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بيده ويحركها يُقْبل بها ويُدْبر :
يُمجِّد الرب نفسه : (أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم)
فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر [١]
وفي رواية مسلم : قال ابن عمر رضي الله عنهما :
[حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول :
أَسَاقِطٌ هو برسول الله صلى الله عليه وسلم]؟ [٢]
وذلك لشدة ما اعتراه من خشية الله تعالى ، لأن الجمادات تتأثر ولها الانفعالات الغضبية كما قال تعالى :
{ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا } ، ولها أيضاً غير ذلك من التأثرات ، قال سبحانه :
{ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ }.
وفي رواية البيهقي وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:
[رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على هذا المنبر]- يعني منبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - [وهو يحكي عن ربه عز وجل ، فقال : (إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة جمع السماوات السبع والأرضين السبع في قبضة ، ثم يقول عز وجل : أنا الله ، أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكُ شيئاً ، أنا الذي أعدْتها ، أين الملوك ؟ ، أين الجبابرة ؟)
وفي رواية ابن برهان (أنا الذي أعيدها) [٣] - أي للحشر - .
أما يوم الدين فهو يوم الجزاء كما في الحديث الذي رواه أبو يعلى مرسلاً عنه صلى الله عليه وسلم :
(البِرُّ لا يبلى ، والذنب لا يُنسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان) [٤].
فقوله صلى الله عليه وسلم :
(البر لا يبلى) : أي عمل الخير يبقى بإبقاء الله تعالى كما قال تعالى :
{ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } أي والصالحات هن الباقيات
(والذنب لا ينسى) : فالله سبحانه لا ينسى ذنب من أذنب معه .

[١] انظر المسند ٥١٥٧ والسنن الكبرى للنسائي
[٢] انظره في صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار
[٣] انظر الأسماء والصفات للبيهقي والعظمة لأبي الشيخ الأصبهاني وجزء ابن عرفة
[٤] قال السيوطي في الجامع الكبير : رواه عبد الرزاق في مصنفه ، والبيهقي فى الزهد عن أبي قلابة مرسلاً وأحمد في الزهد عن أبي قلابة عن أبي الدرداء موقوفًا

(والديان) أي : المُجازي وهو الله تعالى
(لا يموت) وكما تجازي تُجازَى ، قال تعالى : { سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ }.
وإن يوم الدين وما حوى فيه من المَدِينين ومن العوالم ، كل ذلك إنما هو ملك لله تعالى فهو مالكه ومَلِكُهُ ، وبهذا المعنى تعلَّق بعض العارفين لأنه سبحانه مالك يوم الدين فهو القادر على أن يغفر لهم في ذلك اليوم لأنه سبحانه مالك لذلك اليوم ومالك لأهل ذلك اليوم .
وهو سبحانه مَلِك ذلك اليوم فله الأمر والنهي والتصرف جزاء وثواباً وعقاباً .
وإن أعظم مظاهر يوم الدين هو يوم القيامة ، وإن أيام الدنيا تدخل تحت يوم الدين لأن يوم الدين يوم الجزاء ، والدنيا فيها جزاء كما أخبر سبحانه :
{ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ }
وقال سبحانه :{ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }.
وإن الشوكة تصيب المؤمن يكفر الله بها عنه سيئات وذنوباً [1] وهكذا فهذا جزاء ، لكن أعظم مظاهر يوم الدين - أي يوم الجزاء على الصغير والكبير والقليل والكثير - هو في الآخرة ، والفرق بين جزاء الدنيا وجزاء الآخرة أن جزاء الدنيا قد ينبه العبد إلى التوبة فيتوب إلى الله تعالى ويهجر ذنوبه ، وأما في الآخرة فإن الرجوع لا يفيد صاحبه .
وعلى هذا فإن الجزاء الإلهي على العباد مستمر دائماً كما قال سبحانه :
{ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } وهذا من جملة الجزاء .
وإن وصْفه سبحانه لنفسه بالمالك والملِك ليوم الدين فيه تمجيد لنفسه سبحانه كما جاء في الحديث :
(فإذا قال العبد : { مالك يوم الدين } قال الله تعالى : مجَّدني عبدي)[2]
وأما اسم الله سبحانه (المليك) :
ففي الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله مُرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال صلى الله عليه وسلم : (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشِرْكه)

---

[1] روى الإمام مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما من شيء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة أو حُطّت عنه بها خطيئة).
[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي رواية : (وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجرَّه إلى مسلم)
قال صلى الله عليه وسلم :
(قُلْها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك) [1]
وقال تعالى :
{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ }.
واسم المليك يعطي معنى الشدة .
ولما كان المتقون في الدنيا قد أوقفوا نفوسهم على أوامر الله تعالى وملكوها وأوقفوها على حدود شريعة الله تعالى كان جزاؤهم يوم القيامة أن يجعلهم الله تعالى ملوكاً في حضرة مليك - وهو الذي يجعل غيره ملكاً -
ويرحم الله القائل :

إن المليك هو الشديد فكن به　　　ملكاً على الأعداء حتى تمتلك
فإذا ملكت النفس عن تصريفها　　　فيما تريد فكن به نعم الـمَلِك

وإن أقل رجل منزلة في الجنة يعطى من الملك - بكسر الميم - والملك - بضم الميم - أي : من التملك والتصرف - قدر الدنيا وعشر أمثالها [2] .
قال تعالى :{ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا } فصار أهل الجنة ملوكاً عند مليك مقتدر ، لأنهم استعانوا في الدنيا بالله على إيقاف أنفسهم وشهواتهم عند حدود الله وشرعه ، فصار أحدهم ملكاً لنفسه لا مملوكاً لها أي غير أسير تحت شهواته وأهوائه وهذه هي صفة المتقين .
روى الإمام أحمد في الزهد وابو نعيم في الحلية عن سفيان قال :
بلغنا عن أم ربيع بن خثيم أنها كانت تنادي ابنها ربيعاً تقول :
[يا ربيع ألا تنام] ؟ - وكان رضي الله عنه لا ينام من الليل إلا قليلاً-
فيقول : [يا أمّه من جَنّ عليه الليل وهو يخاف البَيات] - أي : النوم في الصحراء – [حقّ له ألا ينام]
قال : فلما بلغ - أي : تقدم في العمر ارتقى حاله وصار ليله كله بكاء ونحيباً - ورأت ما يلقى من البكاء والسهر نادته فقالت : [يا بني لعلك قَتلتَ]
قال : [نعم يا والدة قد قتلت قتيلاً] ، فقالت : [ومن هذا القتيل يا بني حتى نتحمل إلى أهله فيُغتفر لك ؟
والله لو يعلمون ما تلقى من السهر والبكاء بعد ، لقد رحموك]

---

[1] انظر سنن أبي داود كتاب الأدب وسنن الترمذي كتاب الدعوات ومسند الإمام أحمد ٧٧
[2] انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الإيمان وورد فيهما أن الله تعالى يقول لهذا الرجل :
(فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها)

- يعني تركوا الحق الذي لهم عندك -
فقال : [يا والدة هي نفسي]
يعني بأنه أمات شهواتها وحظوظها البهيمية ومن فعل هذا أحيا الله نفسه - ومن أمات نفسه بأن حرمها ما يضرها وكبح جماح شهواتها فقد أمات نفسه ليحييها الله تعالى عندئذ ، فعليك إذاً أن تميت نفسك والله يحييها قال تعالى :
{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }
وكان يقول لهم : لقد أدركنا قوماً - أي من الصحابة - كنا نعدُّ أنفسنا في جنبهم لصوصاً [1]- أي متَّكِلين - .
وكان رضي الله عنه يقول :
إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك، فإنه يقول تعالى:
{ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً } [2]
ولم يترك رضي الله عنه صلاة الجماعة ، ولما أصابه الفالج آخر عمره كان يمشي بين رجلين فيقول له بعض الناس : إن الله قد رخَّص لك - أي أنت معذور - فيقول : وماذا أقول للمؤذن الذي ينادي : حي على الصلاة ؟! [3]
فهؤلاء هم المتقون الذين سلكوا طريق الله بصدق فوصلوا بصدق فحلُّوا في مقعد صدق ، ولابد إذاً من قدم الصدق ولسان الصدق حتى تحل في مقعد صدق عند مليك مقتدر .
واعلم أنه لابد في السير إلى الله من جناحي الخوف والرجاء ، ويُفهم هذا من قصة سيدنا موسى عليه السلام :
فقد سار خائفاً راجياً كما أخبر سبحانه
{ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ }
فكانت العاقبة أن أوصله الله تعالى إلى حضرته وقال له :
{ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } .
فمن اتخذ جناحي الخوف والرجاء ملتزماً لسان الصدق متوجهاً إلى الله تعالى بالصدق أوصله الله تعالى إليه وأحله في مقعد صدق عند مليك مقتدر وإن من سار على هذا الطريق بصدق وأصابه شيء من الشوك - وهي الذنوب - فعليه أن يبادر فوراً إلى انتزاع الشوك من جسده وذلك بالاستغفار والتوبة إلى الله تعالى ، ومن ترك الشوكة في جسمه متهاوناً في أمرها أفسدتْ عليه جسمه ،

[1] انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١ / ٢٦
[2] انظر صفوة الصفوة لابن الجوزي
[3] انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١ / ٢٦

وكذلك ينبغي عدم التساهل في أمر الذنوب ، وعلى من أصاب شيئاً منها التوبةُ والإنابة إلى الله تعالى وعدم الإصرار والتهاون بها ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من التوابين المنيبين إلى حضرة رب العالمين جل وعلا .
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة العاشرة

حول تفسير سورة { قل أعوذ برب الناس }

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول هذه السورة ثلاثة أسماء من أعظم أسمائه سبحانه وأجمعِها ، وهي (الرب والملك والإله) .

أما اسم الإله فله عدة معان في لغة العرب ، وكل هذه المعاني الكاملة الفاضلة موجودة في هذا الاسم الذي اتَّصف به سبحانه .

يقال في اللغة : ألّهَ فلانٌ فلاناً : إذا عبده واتخذه إلهاً أي معبوداً ، فالله سبحانه هو الإله أي هو المعبود بحق .

ويقال : ألِهَ - بكسر اللام - إلى الشيء إذا احتار فيه .

ويقال : أَلِهَ ووَلِهَ ، وعلى هذا يكون معنى الإله : هو الذي تتحير فيه العقول ، فالله سبحانه تتحير فيه العقول حيرة إثبات لا حيرة إنكار وشك .

ويقال : إله من الوَلَه أي هو المُولَه به والمُولَع به ، فجميع ذرات العالم مولهة ومولعة بحبه سبحانه وتعالى .

ويقال : لاهَ فهو إله بمعنى تستَّر واحتجب فلا تدرك حقيقته قال تعالى :

{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } . [1]

[1] انظر لسان الرب مادة(أله)

فلما تقول (لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله ، ويلزم من هذا أنه سبحانه محبوب مولـه ومولع به ، ويلزم من هذا أنه تحتار فيه العقول وأنه سبحانه احتجب عن خلقه فلا يمكن إدراك حقيقة ذاته سبحانه .

وكثيراً ما يذكر الله سبحانه اسمه الإله ويصف نفسه بالألوهية - وهي استحقاق العبادة له جل وعلا - ويقرن هذا باسم الرب ويبين أن من كان رباً حقاً فهو إله حقاً ، ومن لم يكن له حظ من الربوبية فلا حظ له من الألوهية .

ولذلك قال تعالى : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } : أي خالقهم وبارئهم ومربيهم ومُمِدِّهم وهذا باعتراف الناس كلهم والدليل في ذلك ظاهر بيِّن ، فكل إنسان يعلم أنه مخلوق وأنه مربوب وأنه متصرَّف فيه وأنه لا حول ولا قوة له إلا بالله .

وهو سبحانه ملك الناس : أي المتصرف فيهم ، بيده الأمر والنهي والخفض والرفع والسلب والمنع والإعزاز والإذلال ..

وما دام أنه سبحانه رب الناس وملك الناس فهو إله الناس أي معبودهم ويجب أن يعبدوه ولا يعبدوا معه غيره لأن غيره لا حظّ له في الربوبية فلا حظ له في الألوهية ، فالرب هو المعبود ولهذا يقول تعالى :

{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } .

وهذه براهين على ثبوت الوحدانية والألوهية لله تعالى بعد إقرار العقلاء كلهم أنه سبحانه لا رب غيره فلا إله غيره .

ففي قوله تعالى :

{ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } إثبات لربوبيته سبحانه - أي خلقه وإمداده للعالم - وما دام أنه سبحانه هو وحده الخالق المحيي أي أنه هو الرب وحده فلا إله غيره أي لا معبود غيره ، قال تعالى : { أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ..} .

{ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا } أي : تستقرون عليها وتمشون عليها ولم يجعلها حفراً وأودية كلها

{وَجَعَلَ خِلَالَهَا } أي بيْنها { أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ } أي جبالاً رسَت بها الأرض كما ترسو السفينة بالرواسي على أطرافها .

وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وأحمد عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(لما خلق الله الأرض جعلت تميد) - أي تضطرب لأنه خلقها على الماء – (فخلق الجبال فعاد بها عليها [1]فاستقرَّت فعجبت الملائكة من شدة الجبال قالوا : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد

قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار

- إذ إن الحديد يقطع الجبل ، والنار تلين الحديد -

فقالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء

- أي لأنه يخمد جذوة النار -

قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح

- أي : الهواء لأنه هو الذي يحمل الماء ويبخِّره ويكثِّفه -

قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم تصدَّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله [1])

---

[1] قال في تحفة الأحوذي : أي أمر وأشار بكونها واستقرارها عليها

ـ أي أن قوة إخلاص ابن آدم في عمله أقوى من قوة الماء والرياح والحديد والنار والجبال ، وهي قوة مقاومة الإنسان لشهوات نفسه وأهوائها وإيقافها عند أوامر الله تعالى .

قوله تعالى : { وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا } أي بين البحر العذب ماؤه وبين البحر المالح ماؤه ، وهناك الحواجز الحسية والحواجز اللطيفة المعنوية ، فكم من ينابيع عذبة الماء أودعها الله في مناطق من البحار

{ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ } أي أنكم تعترفون أن هذا ليس بقدرة البشر ولا تدخُّل لأحد في أمر ذلك فكيف تجعلون معه إلهاً آخر ؟

بل من كان هو ربكم فهو إلهكم ـ أي معبودكم ـ .

{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ }

أي : جيلاً بعد جيل .

ولقد جعل الله تعالى إجابته للمضطر وكشفه للسوء برهاناً على وحدانيته سبحانه ، فترى نفسك لما تقع في الشدة والضرورة الملجئة وتنقطع بك الأسباب وتوقن أنه لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه ، وأنه سبحانه وحده القادر على كشف الضر عنك فإن الله تعالى يجيبك إلى ذلك ، ومثال ذلك أولئك النفر الذين ركبوا البحر واشتدت بهم رياحه وتلاطمت أمواجه حتى أشرفوا على الهلاك فتراهم يئسوا من كل النجاة إلا أن في قلوبهم أملاً يميلون إليه ولا تنقطع نفوسهم أو تيأس عن التعلق به وهذا هو الأمل بالله تعالى وإلى هذا أشار سبحانه بقوله :

{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ..} الآية

أي لم يبق في قلوبكم من تدعونه إلا الله .

وقد ركب رجل مؤمن وآخر ملحد في سفينة في البحر فلما أشرفا على الهلاك بسبب الأمواج والرياح سأل المؤمنُ الملحد : هل تجد في قلبك إحساساً أو أملاً في النجاة وأن هناك من سينجينا ؟

---

[١] انظر مسند الإمام أحمد ١١٨٠٥ وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

قال : نعم ، فقال المؤمن : هذا هو الله تعالى .

وهكذا لما جعل الله سبحانه إجابة المضطر دليلاً على وجوده ووحدانيته ترى أن الملحد والمنكر يعترف بهذا عندما يقع في الشدة وييأس من أسباب النجاة .

وإن حالة الاضطرار تحمل الإنسان على الاعتراف ، لكن اعترافه لا يُعوَّل عليه ولا يُقبل منه كما أخبر سبحانه عن فرعون لما أشرف على الهلاك قال { آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } الآية . وقال تعالى : { فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } .

وعلى الإنسان أن يعترف بنعم الله تعالى عليه في حالة الاختيار وحالة الاضطرار ، وأن يرجع إليه سبحانه ويعتمد عليه وحده في حالة الاختيار كما اعتمد عليه وحده وسأله وحده في حالة الاضطرار ، وإن الله تعالى القادر على إهلاككم في حالة الاضطرار كما لو كنتم في البحر واشتدت رياحه وتلاطمت أمواجه ، هو القادر على إغاثتكم من ذلك ، وهو قادر على أن يخسف بكم جانب البر ، فلمَ تعرضون عنه لمّا ينجيكم ؟

فكما خفتم منه ورجوتم منه في حالة الاضطرار عليكم أن تخافوه وترجوه كذلك على حد سواء في حالة الرخاء ، وقال صلى الله عليه وسلم :

(تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) [١] .

[١] طرف حديث في المسند ٢٦٦٦ ومستدرك الحاكم كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنه .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن سليم رضي الله عنه قال :

أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُحْتَبٍ بشملة له [١]، وقد وقع هدبها [٢]على قدميه ، فقلت : أيكم محمد أو رسول الله ؟ فأومأ بيده إلى نفسه ، وفي رواية : قال : قلت : أنت رسول الله ؟ قال : (أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضُرٌّ فدعوته كشفه عنك ، وإن أصابك عام سنة - أي شدة وقحط - فدعوته أنبتها لك ، وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضلَّت راحلتك فدعوته ردها عليك ، فقلت : يا رسول الله ، إني من أهل البادية ، وفيَّ جفاؤهم فأوصني ، فقال : (لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً) - أي لا تقصِّر في الإحسان إلى الغير – (ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي ، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره ، وعليه وزره)

- وفي رواية : (وارفع إزارك إلى نصف الساق) - أي ليكن ثوبك الذي تلبسه أعلى من كعب القدم وأسفل من الركبة - (فإن أبيت) - أي أردت الزيادة - (فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة) - بفتح الميم وكسر الخاء وسكون الياء وفتح اللام [٣]-

(وإن الله لا يحب المخيلة) - أي الخيلاء والكبر -

(ولا تسُبَّن أحداً)

فما سببت بعده أحداً ، ولا شاة ، ولا بعيراً " [٤]

---

[١] قال في تحفة الأحوذي : (بشملة) بفتح المعجمة وسكون الميم : ما يشتمل به من الأكسية أي يلتحف ، ومحتب اسم فاعل من الاحتباء ، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم كان جالساً على هيئة الاحتباء وألقى شملته خلف ركبتيه وأخذ بكل يد طرفاً من تلك الشملة ليكون كالمتكئ على شيء ، وهذا عادة العرب إذا لم يتكئوا على شيء . كذا في المرقاة .

وقال في المجمع : الاحتباء هو أن يضم رجليه إلى بطنه بثوب يجمعها به مع ظهره ويشده عليها وقد يكون باليدين . اهـ

[٢] قال في المعجم الوسيط : (الهدب)َمن الثَّوْب طرفه الَّذِي لم ينسج ، واحدته هدبة

[٣] قال في عون المعبود : المخيلة بوزن عظيمة وهي بمعنى الخيلاء والتكبر

[٤] انظر المسند وسنن أبي داود كتاب اللباس

وجاء في الحديث القدسي قول الله تبارك وتعالى :

(بِعزَّتي إنه من اعتصم بي وإن كادته) - أي قاومته -

(السماوات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن ، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بي فإني آخذ به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ، ثم أَكِله إلى نفسه [1])

وروى ابن عساكر عن رجل من الصالحين أنه استأجر دابة ومعها صاحبها فحاد به عن الطريق وأخذه إلى واد منقطع فإذا به قتلى فنزل وسلَّ عليه السيف ، فقال له : انظرني حتى أصلي ركعتين ، قال : فدخلت في الصلاة وكبَّرت فأرتج علي فبعد ذلك خطر لي قول الله تعالى :{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ } فإذا بفارس جاء من جانب الوادي وضرب ذلك القاطع وقتله ، فقلت : أناشدك الله من أنت ؟

فقال : أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه . [2]

قوله تعالى :{ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ }
وإذا قالوا غير ذلك فقل : { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }
وما ذَكَره سبحانه في الآيات هو براهين على وجوده ووحدانيته ، ومن ادعى أن معه سبحانه إلهاً آخر فلا برهان له به ولي‍أت ببرهان على ذلك .
{ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } وقد يطلق الخلق على المخلوق أي : من يبدأ خلق هذا المخلوق ثم يعيده ؟
وقد يطلق الخلق على معنى التكوين والإيجاد وعلى هذا فالمعنى : أمن يبدأ إيجاد المخلوقات وتكوينهم ثم يعيد ويجدد التكوين بقوله تعالى : { كن } التي تعطي لهذا المخلوق كوناً وجودياً ؟

---

[1] انظره في كتاب الزهد الإمام أبي داود بهذا اللفظ وهو في الزهد للإمام أحمد بن حنبل

[2] انظر القصة مفصلة في تاريخ ابن عساكر رحمه الله تعالى

فهناك بدء وإعادة للنوع وهي الإعادة بعد الحشر ، وهناك بدء وإعادة للفرد ولكل موجود يمده الله تعالى بالوجود بقوله : { كن } وهذا قوله تعالى :
{ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } ولو أنه سبحانه سَلَبَ عن الموجود مدد الوجود لعاد إلى العدم .
ولما كان سبحانه هو الإله المعبود فهو المحبوب والمولع به والموله به والمطاع .
ولقد أنكر سبحانه على من اتخذ إلهه هواه أي اتخذ محبوبه هواه وجعل مطاعه هواه وانقاد وراء هواه فقال تعالى :
{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ }أي جعل يتبع ويطيع هوى نفسه وشهواتها - وهذه هي العادة - وكيف يصح للإنسان أن يتبع هوى نفسه ويعدل عن شرع ربه ؟!
ولقد قال الله تعالى في أولئك الذين اتخذوا أهواءهم إلهاً وعبدوها :{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } إذ إن أهواءهم مبنية على شهوات نفوسهم وآرائهم الفاسدة وجهلهم بحقائق الأمور ، والخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المقصود به الأمة من بعده .
أما الله سبحانه فيعلم المفاسد والمصالح والخير والشر وهكذا
{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ } أي منهج ظاهر ، ولا يسمى الطريق شارعاً إلا إذا كان ظاهراً واسعاً ، فشريعة الله تعالى ظاهرة واسعة ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم :
(قد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك) [1] فمن تمسَّك بها سلم بنفسه وأهله وإخوانه وبلده وهكذا .. فلا خفاء فيها ولا التباس .
ثم قال سبحانه :
{ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }
فالشريعة تبصِّر كل من كان ذا نور في بصره وقلبه .
ثم قال تعالى :
{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } أي ترك شريعة الله وعدل عنها واتبع هوى نفسه وشهواته .. فلم يتخذ ربه إلهاً بل اتخذ هواه إلهاً له باتباعه له
{ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ } أي على علم منه أن أوامر الشريعة هي الحق والأحق بالاتباع

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٦٥١٩ وسنن ابن ماجه في المقدمة

{ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ }
اللهم اهدنا فيمن هديت . آمين .
ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من اتخاذ الهوى إلهاً كما روى الطبراني : (ما تحت ظل السماء من إله يُعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى مُتَّبَع) [1]
فهذا الذي استحسن ما اشتهت نفسه وأحلّ ما حرم الله هو أشد قبحاً من ذلك الذي عبد صنماً وأشرك مع الله غيره ، بل يجب على هواه أن يتبع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .
والإله من (أَلِه) إذا تحيَّر ، فهو سبحانه تتحير فيه العقول ، ولكن هذه الحيرة حيرة إثبات لا حيرة شك ، فكما لو كانت الشمس طالعة فلا يسعك إنكار وجودها ولكن بصرك يحتار لما يحدق فيها ويتلاشى بل وتعتريه ظلمة ، وذلك لقوة ظهور الشمس وقوة نورها ، فحيرة البصر هذه حيرة إثبات لا حيرة شك .
وإن الله تعالى الذي ليس كمثله شيء هو الظاهر وهو الذي أظهر جميع الظواهر كالشمس والقمر والذي أظهرها أشد ظهوراً منها ، ولذلك فإن العقل يحتار لما يبحث في حقيقة الله تعالى وذاته لا أنه اعتراه الشك في وجود الله تعالى ، وقد نهى الله تعالى عن التفكر في ذات الله تعالى فقال : { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } ولا يمكن للعقول والإدراكات أن تنتهي إلى إدراك حقيقة ذات الله تعالى لأنه سبحانه لا نهاية له في ذاته وصفاته
وأنه إليه المنتهى وأنه بكل شيء محيط ، وأنى للمُحاط أن يخرج من حيطة الله تعالى ليحيط به ، ولذلك قال تعالى :{ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } أي ولا يحيطون بعلم اسم من أسمائه أو صفة من صفاته سبحانه وتعالى ، ولم تعرف الخلائق عن صفات ربها وأسمائه إلا ما علّمها وعلى حسب ما يتسعون لعلمه ، ولكنه سبحانه أجل وأعظم وأعلى من ذلك قال تعالى : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } أي فمن باب أولى ما قدروا الله حقيقة قدره ، والمعنى : ما عرفوا مقتضى مقام الألوهية كما هو ولم يعظّموه بمقتضى ذلك المقام ، ولا أحد قدر أن يعظم ما يقتضيه مقام الألوهية منه ، ولذلك لم يكلفهم سبحانه أن يقوموا بمقتضى مقام الألوهية من العبادة ، بل كلَّفهم بالعمل بما يطيقون قال سبحانه { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا }.
ولك عبرة أيها الإنسان في هذا الخفاش الذي لا يدرك من نور الشمس إلا القليل ولو قوي نورها لما أدرك شيئاً منه ، وإن جميع إدراكات خلق الله تعالى من أنواره سبحانه ما هي إلا كما يدرك الخفاش من الشمس ،

[1] عزاه في كنز العمال للطبراني وأبي نعيم في الحلية

وهذا مثال لتحقيق العجز ولتقريب الفهم إلى العقل لا على سبيل التشبيه والحصر فالله أجل وأعلى .

وإن أعرف العالمين برب العالمين هو السيد الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال :

(والله إني لأعلَمُكم بالله عز وجل وأخشاكم له) [1]

ومع هذا فقد قال صلى الله عليه وسلم :

(لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) [2]

أي أنت كما أنت : أعظم مما عرفناك وأعظم مما حمدناك وكبرناك وعبدناك .

وروى أبو نعيم عن عبد الله ابن سلام رضي الله عنه قال:

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله؛ فقال لهم : (فيم كنتم تفكرون) ؟ قالوا : نتفكر في خلق الله قال: (لا تتفكروا في الله) - أي في ذاته سبحانه -(وتفكروا في خلق الله) [3]

وروى أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله ، فقال :

(تَفكَّروا في الخلق ، ولا تفكروا في الخالق ، فإنكم لا تقدرون قدره)

وفي رواية :

(تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره) [4]

وفي رواية : (تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله) [5]

وفي رواية: (تفكروا في آلاء الله) - أي نعم الله - (ولا تفكروا في الله) [6]

---

[1] طرف حديث في المسند ٢٣٧٦٥

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها

[3] عزاه الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة لأبي نعيم في الحلية

[4] أخرجه أبو نعيم في الحلية ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب

[5] عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى أبي الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه ، وأبي نصر السجزي فى الإبانة وقال : غريب ، والبيهقي فى الأسماء عن ابن عباس رضي الله عنهما

[6] عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى ابن أبي الدنيا فى كتاب التفكر وأبي الشيخ فى العظمة ، والطبراني فى الأوسط ، وابن عدي ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والأصبهاني ، وأبي نصر عن ابن عمر رضي الله عنهما

وإن الإنسان يزداد معرفة بالله تعالى كلما انتقل في العوالم إذ تنكشف له حجب وحجب ، ويزداد علماً بالله تعالى ويعرف من الله ما لم يكن يعرف من قبل ، وإن النفس بشهواتها وأهوائها هي من أعظم الحجب المانعة من معرفة الله تعالى .
وهو سبحانه الإله أي المولە به والمولع به ، والعالم كله مولع بالله تعالى ، لكن هناك من سكر عن ذلك حتى إذا مات زالت عنه سكرته وأفاق من غفلته وهؤلاء هم الكفار .
أما المؤمنون فهم على ولائهم وحبِّهم ، إذ إنه سبحانه لما خلق الخلق فطرهم على معرفته وحبه وأقروا بأنه ربهم لأنهم شاهدوا ربوبية الله عليهم فقالوا :{ بَلَى } أي أنت ربنا ، لما سألهم ربهم سبحانه : { ألست بربكم }
ولما ظهر بنو آدم في هذا العالم فمنهم من حافظ على عهده السابق مع الله تعالى وهم المؤمنون ، ومنهم من سكر - أي غفل وَلَهَا - عن حب الله واشتغل بمحبة غير الله كما قال تعالى{ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ } ولا يفيقون من سكرتهم إلا بالموت ، لكن العاقل من ينتبه قبل حلول الموت به ، ولما يموت هؤلاء ويفيقون من سكرتهم وينتبهون من غفلتهم يرجعون إلى حب الله تعالى لكن الله تعالى يحتجب عنهم وقتئذ كما احتجبوا عنه في الدنيا قال تعالى :{ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }
أي شغلوا قلوبهم عن الله فختمت آثار أعمالهم على قلوبهم حتى أظلمت فكان جزاؤهم كما أخبر سبحانه { كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } .
ولقد أخبر سبحانه أنه فطر جميع الأشياء على معرفته سبحانه وحده قال تعالى :{ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }
{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }
فكل الأشياء مخلوقة تسبح خالقها وتولع به وتألَّه إليه
وقد يكشف سبحانه عن هذا التسبيح لمن شاء من عباده كما كشف ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وذلك في تسبيح الحصى والطعام في حضرته صلى الله عليه وسلم [1] .

---

[1] جاء في صحيح البخاري كتاب المناقب عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل) وجاء في المعجم الأوسط للطبراني ودلائل النبوة للبيهقي ومسند البزار ودلائل النبوة لأبي نعيم حديث تسبيح الحصى ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق واللفظ له عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ حصيات في يده فسبحن حتى سمعنا التسبيح ثم صيَّرهن في

وروى الإمام أحمد في مسنده أنه صلى الله عليه وسلم مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم :
(اركبوها سالمة ودعوها سالمة) - أي إما أن تركبوها أو تتركوها -
(ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله تبارك وتعالى منه) [1]
وهذا كما لو ركب الحمارَ كافرٌ ، لأنه لم يركبه بحق
وفي الآخرة سيحمل الكافر على ظهره أقبح شيء صورة وأنْتَنَه ريحاً
قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :
أخرج أبن جرير وابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس الملائي قال :
إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريحاً ، فيقول له : هل تعرفني؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيّب ريحك وحسّن صورتك ، فيقول : كذلك كنت في الدنيا ، أنا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا فاركبني أنت اليوم ، وتلا { يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً }
و إن الكافر يستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحاً ، فيقول : هل تعرفني؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد قبَّح صورتك ونتّن ريحك ، فيقول : كذلك كنت في الدنيا ، أنا عملك السيء طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك ، وتلا
{ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون }
وروى الإمام أحمد في مسنده عن النعمان بن سعد قال :
(كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه فقرأ هذه الآية
{ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً }
قال : لا والله ما على أرجلهم يُحشرون ، ولا يُحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن على نُوق لم تر الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة)
وقد وقف صلى الله عليه وسلم على ناقته العضباء يوم حجة الوداع وخطب في الناس وذلك لضرورة الأمر حتى يروه ويسمعوا صوته صلى الله عليه وسلم . [2]

يد أبي بكر فسبحن حتى سمعنا التسبيح ثم صيرهن في يد عمر فسبحن حتى سمعنا التسبيح ثم صيرهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعنا التسبيح .

[1] المسند ١٥٠٧٦

[2] انظر ما ذكره القرطبي عند تفسيره لقول الله تعالى :
{ متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً } وفيه :
والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء ، وجاء في سنن أبي داود ومسند الإمام أحمد أن الهرماس بن زياد الباهلي رضي الله عنه قال :

قوله تعالى : { إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } أي ولولا حلمه ومغفرته سبحانه لآخذكم وعاقبكم لتقصيركم عن ذكر الله وتسبيحه ، إذ إن جميع الأشياء تسبح ربها ولا تمل أو تكل فأنتم أحق وأولى .
وكان من مناجاة سيدي أبي يزيد [1] رضي الله عنه :
إلهي ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، إنما العجب من حبك لي وأنت ملك قدير [2]
قال تعالى :{ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } فهؤلاء قوم ولهوا بالله تعالى وهاموا في حبه سبحانه .
وكان لشدة حبه وولهه رضي الله عنه يقول :
الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافَون عنه ، وأنا أسأل الله أن يحاسبني !
فقيل له : لِمَ ؟
قال: لعله جل وعلا يقول لي فيما بين ذلك : يا عبدي فأقول: لَّبيك
فقولُه لي: (يا عبدي)
أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ ثم يفعل بي ما يشاء [3]
فهؤلاء أحبوا ربهم الذي هو إلههم أي معبودهم وأولعوا في حبه سبحانه .
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب الناس على ناقته العضباء يوم الأضحى بمنى

[1] هو سيدي سلطان العارفين وشيخ الصوفية طيفور بن عيسى البسطامي - نسبة إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) - أصله منها، ووفاته فيها سنة ٢٦١ هـ رضي الله عنه ونفعنا به ، وقد نقلوا عن سيدي أبي يزيد أشياء يُشكّ في صحتها عنه ، وما أعظم قوله : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ حدود الشريعة .
(انظر لسان الميزان لابن حجر وسير أعلام النبلاء للذهبي) . اهـ

[2] انظر حلية الأولياء ٤ / ٢٦٠

[3] انظر طبقات الأولياء لابن الملقن ١ /٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الحادية عشرة
حول تفسير سورة { قل أعوذ برب الناس }

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

قوله تعالى :{ إِلَهِ النَّاسِ } وكلمة { إله } لها عدة معان ، فالإله هو المعبود بحق و(لا إله إلا الله) - أي لا معبود بحق إلا الله - .
والإله هو الذي تحتار فيه العقول حيرة إثبات لا حيرة ارتياب وشك ، وهذا هو الله تعالى الذي أدهش العقول وأعجزها أن تدرك حقيقة ذاته سبحانه .
والإله : من لاهَ إذا احتجب ، فهو سبحانه كما قال :
{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } .
والإله هو الذي يولَه به ، والعالم كله مولَه - مولع - بحب الله سبحانه .
أما معنى الإله المعبود : فقد قال سبحانه :
{ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }
أي : ومعبودكم هو إله واحد - وهو المعبود بحق -
{ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }لا معبود بحق إلا هو { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }.
ثم ذكر سبحانه الدليل على ألوهيته وأنه المعبود بحق وحده ، وأنه هو الذي يجب أن يُعبد وحده ، وأن عبادة غيره لا تجوز لا شرعاً ولا عقلاً ولا ذوقاً ولا فطرة ، فقال تعالى :{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }
أي إن فيما ذكره الله تعالى من التدابير الكونية المشهودة للخلق فيه براهين وأدلة معقولة عند من يعقل وينصف على أنه لا رب إلا الله تعالى ، وما دام لا رب إلا الله فلا إله إلا الله ، لأن الإله المعبود بحق هو الرب الحق ، ومن كان رباً فهو إله ، فهو سبحانه ربك : بيده أمرك خلقاً وإمداداً ورزقاً وإحياءً وإماتةً وتدبيراً فهذا الرب هو الذي يجب أن تعبده ، ومن لم يكن رباً فلا يجوز أن يُعبد ، ولذلك قال تعالى :
{ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }

والدليل على هذا ما جاء في قوله تعالى
{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...} الآية ،وهذا كله من تربية الله لكم وإمداده لكم وأنتم عاجزون عن خلقها وتدبيرها فلابد إذاً من رب خالق لها مدبِّر لشؤونها ، وهذا الخالق يجب أن تعبدوه وحده .
{ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } أي لبراهين وأدلة لقوم يعقلون في هذا الكون فينتهون إلى المكوِّن ، ويتعقلون في هذا العالم فينتهون إلى المسبِّب ، ويتعقلون في هذه الأشياء فينتهون إلى خالقها ، قال تعالى :
{ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى }
فكل شيء تعقَّلت وتفكرت فيه يوصلك إلى الله وينتهي بك إلى الله وينتهي أمره إلى الله .
وقال تعالى :{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ }
أي وهو المعبود بحق في السماء وفي الأرض .
وذكرالسماء لأن آيات ألوهيته سبحانه مشهودة في السماء ، وآيات ألوهيته مشهودة في الأرض أيضاً ، فانظروا في السماء وانظروا في الأرض تروا آيات ألوهيته ووحدته سبحانه وتعالى كما قال جل وعلا :
{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ }
فآيات وجوده ووحدته وقدرته وربوبيته شاملة للسموات والأرض قال تعالى :
{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ }
وقال سبحانه :{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }
أي فترون فيها آثار أسماء الله تعالى وصفاته ، وقال تعالى :
{ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ }
أي صغير دقيق ولو كان ذبابة أو غيرها فإذا تأملت فيها انتهيت إلى خالقها وهو الله تعالى .
وهو سبحانه الإله الذي احتجب عن البصائر والأبصار أن تدرك حقيقة ذاته، فهي ترى أنواره ولكنها لا تدرك حقيقة ذاته قال سبحانه :
{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ }.

فقوله تعالى :
{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي خلَقَهما لا على مثال سابق بل أوجدهما إبداعاً
{ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ }أي : كيف يكون له ولد والحال ليس له صاحبة ؟ !
فليس له صاحبة مماثلة له من جنسه حتى يُتصور التوالد بينهما !!
أما السيدة مريم عليها السلام فهي مخلوقة تأكل وتشرب ويعتريها ما يعتري بني الإنسان ، وهو سبحانه لا شبيه له ولا نظير ولا مماثل كما قال تعالى
{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } فكيف يُتصور التوالد والتجزؤ عليه سبحانه ؟!
{ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } أي كوّنَ كل شيء ، ويكون معنى الآية بعدها
{ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } : أي : مقدّر كل شيء ، أو المراد من قوله تعالى :
{ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } أي قدّر كل شيء - وهذا أنه سبحانه قدَّر كل شيء قبل أن يخلقه على مكان معين وزمان معين ونسبة معينة وجوّ معين وكيفية معينة وهكذا ..
وقال تعالى :
{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ } أي قدّره من تراب ، ثم أوجده
{ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } .
وخلق التقدير يكون في الهيئة والشكل والصورة والزمان والمكان والكيفية والجو .. وهكذا .
{ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } أي عالم بكل شيء ومعلوم بكل شيء، وهذا على وزن فعيل التي تأتي بمعنى فاعل ومعنى مفعول حسب السياق .
والمعنى أن كل شيء إذا تفكرت فيه وتدبرت فيه دلّك على الله تعالى فهو سبحانه معلوم بكل الأشياء ، وأنواره ظاهرة في كل شيء ، فانظره في كل شيء تر آياته وأنواره ظاهرة كما قال تعالى :
{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }
وقال سبحانه في آية أخرى :{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}
أي ظاهر في السموات وفي الأرض بآياته وأنواره وآثار أسمائه سبحانه .
{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } أي هذا هو الله الخالق المكوِّن لكل شيء ، ولا رب لكم غيره
{ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } فلا معبود سواه
{ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } أي مقدّر كل شيء إن كان المعنى في الآية الأولى : مكوّن

{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } أي شهيد وحفيظ ومهيمن ولولا هذه الوكالة منه على كل شيء لما ثبت للشيء وجوده .
والمعنى : أنه سبحانه رقيب شهيد حفيظ مهيمن على كل شيء ، ورقابته على الشيء حتى يحفظ على هذا الشيء وجوده ولو أهملك لحظة عن رقابته وإمداده لصرت في العدم .
{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} أي لا تحيط به ولا تنتهي إلى معرفة حقيقة ذاته سبحانه وتعالى
{ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } أي أنه محيط بخلقه على وجه لائق به فأنى لهم أن يخرجوا من حيطته بهم ويحيطوا به ؟!
ولا ينافي هذا أنه سبحانه وتعالى يُرى ، فقد ورد أن المؤمنين في الجنة يرون ربهم ، ولكن لا يلزم من ذلك أنهم يحيطون به علماً أو يدركونه رؤية كما قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما :
إن الله تعالى يقول :{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} ، فهل يُرى ؟
فقال له : ويحك يا هذا أنت ترى السماء أم لا ؟
قال : أراها ، قال : هل أحطت بها وأدركتها ؟
قال : لا ، قال : فالله أعظم من ذلك) .[1]
فكما لا تدرك السماء رؤية ولا تحيط بها علماً مع أنها خلق من خلق الله تعالى . فما بالك بالخالق فهو أجل وأعظم سبحانه وتعالى .
وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال :
قيل : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : (رأيت نوراً)
وفي رواية : (نور إني أراه) [2]، يعني على طريق الإيجاب .
قال عفان - أحد رواة الحديث - : وبلغني عن ابن هشام يعني معاذاً أنه رواه عن أبيه كما قال همام : (قد رأيته) وفي رواية : (نور أنى أراه) [3] .
وفي هذه الروايات إثبات لرؤيته صلى الله عليه وسلم لربه ، ونفي عن إمكان إدراك حقيقته سبحانه بالرؤية وهي قوله صلى الله عليه وسلم :
(نور أنى أراه) أي : أنى أدرك حقيقته .

---

[1] قال الإمام السيوطي في الدر المنثور :
أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال :
إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه ، فقال له رجل عند ذلك :
أليس قال الله { لا تدركه الأبصار }
فقال له عكرمة : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : فكلها تُرَى ؟ »
[2] المسند ٢١٥٦٧ .
[3] صحيح مسلم كتاب الإيمان عن أبي ذر رضي الله عنه .

وهذا المعنى هو الذي أرادته السيدة عائشة رضي الله عنها في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه أنها قالت لمسروق رضي الله عنه :
من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، أو لم تسمع أن الله يقول :
{ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير }[١]
فقد أرادت السيدة عائشة رضي الله عنها من الرؤية رؤية الإحاطة وإدراك الحقيقة وهذا لا يمكن كما تقدم ، فافهم مراد السيدة عائشة رضي الله عنها فليس مرادها أن تنفي رؤية الظهور فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الإسراء والمعراج كما دلت عليه الأحاديث .
وقال سبحانه :{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }
فهو سبحانه يُرى ولكنه لا يُدرك .
قوله تعالى : { قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ } أي : بصائر تبصّر قلوبكم وأعينكم فمن سارع وأخذ بصيرة من هذه البصائر ووضعها على فم قلبه استنار قلبه وصار عنده بصيرة تبْصر الأمور والحقائق كما هي عليه .
وهذه البصائر هي الآيات القرآنية التي أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم { وَمَنْ عَمِيَ } بأن أعرض عن آيات الله تعالى والتدبر فيها { فَعَلَيْهَا }بأن تعامى عن قبول الحق فأعمى الله تعالى قلبه ، قال جل وعلا :
{ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }
. ومن كان أعمى القلب في الدنيا حشره الله تعالى أعمى البصر في الآخرة كما أخبر سبحانه
{ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ }
أي : هكذا استحقاقك وينبغي ذلك لأنه
{ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا } أي تعاميت عنها وتغافلت
{ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى }. أي تُترك في العذاب .
واعلم أنه في الدنيا قد تفرق بين رؤية البصر ورؤية البصيرة القلبية ، فقد تنظر إلى إنسان بعين البصر فتراه وسيماً مليحاً بالظاهر ، ولكنك إذا نظرت إليه بعين البصيرة إذا هو قبيح ، وكم من الناس على شكل الناس ولكنهم كما قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه :
« ذهب الناس وبقي النسناس » قيل له : وما النسناس ؟
قال : « الذين يشبهون الناس ، وليسوا بالناس » [٢]

---

[١] في كتاب الإيمان
[٢] انظره في الزهد الكبير للبيهقي والزهد لأبي داود وهو في الحلية معزو لابن عباس رضي الله عنهما

أما في الآخرة فإن البصر تابع للبصيرة والذي يبصره القلب هو الذي تراه العين ، فهذا الرجل الذي كان أعمى البصيرة في الدنيا كان يرى ببصره الأشياء الظاهرة فلما صار في الآخرة عمي بصره تبعاً لقلبه لأن بصيرته كانت عمياء فتبعها البصر ، قال تعالى :
{ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى } أي : أعمى القلب
{ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى } الآية .
وقال تعالى :{ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا }
وهذا من حيث إدراكهم للأمور ،. أما من حيث التحسس بالعذاب والأهوال فهم يدركونها تماماً كما قال تعالى :
{ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } أي : ما أشد سمعهم وما أقوى بصرهم
{ يَوْمَ يَأْتُونَنَا } وذلك لينالوا العذاب الذي يستحقونه ، فيرون الأهوال ويسمعونها .
وهو سبحانه الإله الذي ولهت به الأشياء وهامت بجلاله الأشياء وتعشقت به الأشياء كلها ، فكل شيء يقال له شيء سواء كان مشهوداً أو مغيباً علوياً أو سفلياً معنوياً أو مادياً كل شيء موله ومولع بالله وهذا حب وعشق فطري وذوقي وخلقي لأن الله تعالى أوجده .
وأنت أيها الإنسان من جملة من فطره الله تعالى فلما قال لك : { كن } واستجبت لقوله جل وعلا { كن } وكنت فإن أول ما أدركت وعرفت من الأشياء إنما هو الله تعالى خالقك ومكونك ، وهكذا شأن كل شيء خلقه الله تعالى بقوله : { كُنْ }فإن أول ما يعرف من الأشياء إنما يعرف ربه ثم يكشف له سبحانه عن معرفة الأشياء .
فكل شيء إنما عرف - أول ما عرف - عرف ربه ، وكل شيء إنما أحب - أول ما أحب - أحب ربه وتعلق بربه ، ثم بعد ذلك صار له علاقات مع أمه وأبيه وبني جنسه وهكذا ، فالعقلاء - وهم أولو الألباب - قد تعلقوا بربهم ولم ينشغلوا بأشياء أخرى عن الله بل بقوا متعلقين بالله كيوم خلقهم وكأنه الآن أوجدهم قال تعالى :
{ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } والحب الأشد هو العشق المفرط .
وهكذا شأن جميع الأشياء لأن الله تعالى خلقها وكل شيء متعلق بربه ومتعشق به سبحانه ، وكل ذرة في الكون عابدة لله مسبِّحة بحمده ساجدة لله تعالى عاشقة لله لا تستغني عن الله لأنه ربها وبه قامت وله استقامت .
ولو أنك استنطقت العالم بسمائه وأرضه وجباله لرأيت فيه من العشق والحب لله والغيرة له سبحانه ما أدهشك ولرأيت من الحب والعشق فيه ما يعجز عنه الواصفون والكتّاب ،

ولهذا قال تعالى :
{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ }
أي ممن في السموات والأرض والطير
{ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ }.
وقال تعالى :{ أَلَمْ تَرَ } وقد خاطب سبحانه من يشهد ذلك وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل : ألم تروا . إذ ليس كل الناس يشهدون ذلك ويسمعون ذلك ولذلك قال تعالى :{ أَلَمْ تَرَ } مخاطباً حبيبه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الذي أطلعه سبحانه على جميع ذلك .
وأما غيره فقد ينال شيئاً من هذا بالوراثة النبوية المحمدية
{ أَلَمْ تَرَ } أي تشاهد وتعاين ذلك يا محمد صلى الله عليه وسلم
{ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ..} الآية .
وقال تعالى :{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } وهذا كما قال تعالى :
{ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ }
أي بحياتهم - فلا تنكروا حياة الشهداء إذا كنتم لا تشعرون بحياتهم ، ولا تنكروا تسبيح الأشياء إذا كنتم لا تفقهون أي لا تفهمون ما تسمعون أو لا تسمعون أصلاً كتسبيح الجبال والأرض والحصى والشجر والمد، وقد غفر الله هذا عنكم - أي ستر سماع تسبيح الأشياء عنكم رحمة بكم -
{ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } فلو كشف ذلك لجميع الناس لما تحملوا ولطاشت عقولهم ، وهو سبحانه حليم بكم غفور لكم إذ تجاوز عن غفلاتكم وتقصيركم في تسبيح الله في حين أن الأشياء كلها لا تغفل عن تسبيح الله تعالى ولا لحظة .

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال :
إني قاصر عليكما الوصية :
آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك والكبر [1] وآمركما بلا إله إلا الله - أي الإكثار منها - فإن السموات والأرض وما فيهما لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح ، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لفصمتها أو لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء)
- أي أنهما لما يطلبان الرزق من الله يكثران من قول : سبحان الله وبحمده -
واعلم أنه في الدار الآخرة تنكشف الأمور كلها فيسمع تسبيح الأشياء عامة كما قال تعالى :
{ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }
فالدار الآخرة كلها حياة ظاهرة بارزة لا خفاء فيها ، أما الدار الدنيا فهي دار تكليف ظهرت فيها بعض الأشياء وبطن بعضها من باب الاختبار والابتلاء حتى يتبين من يؤمن بالغيب ممن لا يؤمن .
ولما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين يعذب صاحباهما قال :
(إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله)
- وفي رواية : (لا يستنزه من بوله) [2]
(وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)
وعلى هذا فإن النجاسات الحسية والمعنوية القلبية هي من أعظم أسباب عذاب القبر ، نسأل الله العافية
ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغصن أخضر وشقَّه نصفين وغرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً وقال :
(لعله أن يُخفف عنهما) - أي : من عذابهما - (ما لم ييبسا) [3]

---

[1] وذلك لضرر الكبر على صاحبه وكونه فرعاً عن الشرك ، وفي الحديث الذي رواه مسلم :
(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)
[2] كما في سنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها
وفي المسند : (أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول)
[3] انظر صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الطهارة

وذلك لأن الغصن الأخضر يسبح الله ويحمده فيخفف على صاحب القبر عذابه ببركة التسبيح والتحميد فينتفع الميت بتسبيح الغصن ما دام أخضر وإلا فالأشياء تسبح الله على الدوام فافهم .
ولقد كشف الله تعالى لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن تسبيح الأشياء والجمادات ، وكشف له عن إدراكاتها وقد أسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته لقوة نوره صلى الله عليه وسلم [1].
وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن موسى كان رجلا حيياً ستّيراً) - بكسر السين وتشديد التاء المكسورة (لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة) - أي مرض لأنه عليه السلام لم يكن يغتسل معهم عرياناً بل كان يغتسل وحده في مكان بعيد عنهم وهم يغتسلون عراة [2]
(وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه) - أي مشى سريعاً – (فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملإ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً [3] من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً } [4]
فالحجر موحد لله عارف بالله ينفذ أمر الله تعالى ويعرف أن موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم وله إدراكه الخاص به ولولا ذلك لما ضربه موسى عليه السلام .
وقد أخبر سبحانه عن غضب السموات والأرض والجبال وشدة غيظها من دعوى أولئك الذين نسبوا لله تعالى ولداً فقال :{ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا }
والحال { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا }

---

[1] انظر هذا المبحث في المحاضرة السابقة
[2] انظر صحيح مسلم كتاب الحيض
[3] والندب والندم في الشيء يدل على ظهور الأثر في هذا الشيء ، ولما كان الندم توبة دل على أنه لابد من تأثر القلب واحتراقه أسفاً وحسرة على ما فعل وتاب منه .
[4] في كتاب أحاديث الأنبياء

ولولا أنها كانت في غاية التوحيد والتفريد لما غضبت وكادت تتشقق من شدة غضبها لما دعوا للرحمن ولداً .
وهكذا فإن المؤمنين أولي الألباب لم ينشغلوا بغير الله من الأغيار وحافظوا على عهدهم السابق مع الله تعالى وفي هذا يقول الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه :
(إن لله عباداً لو حجبهم في الجنة ساعة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار لكنهم على الأرائك ينظرون) [1]
وهم الهائمون في الله تعالى الذين هم في الشهود الدائم .
وقد ورد في الأثر أن النار قالت :
يا رب إنك تعذب أعداءك الذين خالفوا أمرك تعذبهم بي فأنا لو خالفت أمرك فبأي شيء تعذبني ؟ قال لها : ألقي الحجاب بيني وبينك .
وقد حكى أن ذا النون المصري بعث إنساناً من أصحابه إلى أبي يزيد، لينقل إليه صفة أبي يزيد... فلما جاء الرجل إلى بسطام سأل عن دار أبي يزيد فدخل عليه فقال له أبو يزيد: ما تريد ؟ فقال: أريد أبا يزيد .
فقال: من أبو يزيد ؟ وأين أبو يزيد ؟ أنا في طلب أبي يزيد .
فخرج الرجل، وقال : هذا مجنون.
ورجع الرجل إلى ذي النون، فأخبره بما شهده ، فبكى ذو النون وقال:
أخي أبو يزيد ذهب في الذاهبين إلى الله [2]
وقد طرق أحدهم الباب على الشيخ أبي يزيد رضي الله عنه فقال :
من تريد ؟ قال : أريد أبا يزيد ، فقال له : اذهب ، والله ما في البيت إلا الله - يعني أن أبا يزيد هائم في الله فلا تسل عنه .
ولا تنكر هذا عليهم إذ إنك لما تحب إنساناً وتقول له : أنت روحي وأنت في عيني وأنت في قلبي فاعلم أن كلامك صدق ولكن وجود المحبوب في قلبك ليس وجوداً حسياً كوجود الطعام والغذاء في المعدة ! وإنما قد سرى حب فلان في قلبك ودمك أشد من سريان الطعام في أحشائك .
وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الله عز وجل يقول يوم القيامة :
يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْنِي
قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

---

[1] انظره في حلية الأولياء لأبي نعيم وبحر الفوائد للكلاباذي وإيقاظ الهمم شرح متن الحكم لابن عجيبة
[2] انظر الرسالة القشيرية ١ / ٣٧

قال : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعدْه ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده) [1]

وذلك لأن حال المريض دوماً هو الرجوع إلى الله والدعاء والاستغاثة بالله والتضرع إلى الله ولذلك قال أبو يزيد : ما في البيت إلا الله

- يعني ما في البيت إلا حب الله وذكر الله -

وكتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد :

سكرتُ من كثرة ما شربت من كأس محبته.

فكتب إليه أبو يزيد:

غيرك شرب بحور السموات والأرض - أي شرب بحاراً من المحبة - وماروي بعد، ولسانه خارج ويقول: هل من مزيد

وأنشد:

عجبت لمن يقول: ذكرت ربي وهل أنسى فأذكر من نسيتُ؟!

شربت الحب، كأساً بعد كأس ... فما نفد الشرابُ، وما رويتُ [2]

وقال رضي الله عنه :

إن الله تعالى أمر العباد ونهاهم فأطاعوه فخلع عليهم خلعة من خلعه فاشتغلوا بالخلع - أي : العطايا - عنه وإني لا أريد من الله إلا الله [3]

- أي أن هناك من المتعبدين من سلك طريق الله فلما ظهرت له بعض الكرامات رضي بها ووقف عندها فشغلته عن الله ، أما شأن الكُمَّل أن لا يشغلهم شيء عن الله وأن لا يلتفتوا إلى غيره سبحانه .

وسمع سيدي أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه - وكان يصلي في المسجد - سمع قارئاً يقرأ هذه الآية :

{ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً }

فبكى دمعاً غزيراً أصاب المنبر بل ذُكر أنه طار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر وصاح وقال : يا عجباً كيف يحشر إليه من هو جليسه إشارة إلى الحديث :(أنا جليس من ذكرني) [4] . اهـ

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

[2] انظره في الرسالة القشيرية وطبقات الأولياء لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري المتوفى سنة ٨٠٤ هـ رحمه الله

[3] كما في حلية الأولياء لأبي نعيم

[4] طرف حديث في مصنف ابن أبي شيبة وشعب الإيمان للبيهقي

ومراد الإمام أبي يزيد أن الحشر إلى الرحمن جل وعلا هو كشف الحجب ، لا الحشر المادي المعروف لأن هذا لا بد منه كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثانية عشرة

حول تفسير قوله تعالى :

{ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ }

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

إن الوسوسة هي الخَطَرات التي تلقيها الشياطين والإنس والجن في القلوب ، فتحرِّك هذه الخطرة الرديئة تحرك الرغبة في الإنسان إلى فعل المكروه فإذا قويت الرغبة صارت عزيمة فإذا قويت صارت نية فإذا استحكمت النية في القلب حملت صاحبها على العمل .
وقد أخبر سبحانه أنه قد مكَّن إبليس من هذه الوسوسة الخفية من باب الامتحان والاختبار لأن الدنيا دار تكليف فجعل الله تعالى الشياطين سبباً يصدر منهم الوسوسة والتزيين وتحريك ما كمن في القلب وسكن في النفس حتى يظهر أمر هذا الإنسان ويظهر ما فيه من خير وشر .
كما أنه سبحانه وتعالى جعل إلى مقابل هذا خطرات محمودة تتوارد على القلب من قبل الملائكة ، وتسمى هذه الخطرات الملكية بـ
(الإلهامات الإلهية) ، ولهذا قال الله تعالى مخبراً عن إبليس قوله :
{ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } ونسأل الله أن يجعلنا منهم .
فقوله تعالى مخبراً عن إبليس :{ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ }
أي لأجعلَنَّ الزمام في حنكهم وأقودنَّهم كما يقود الإنسان الدابة .

وقد جاء في لغة العرب : احتنكتُ الدابة وحنكتها إذا وضعت الزمام في حنكها فهي محتنكة - بفتح التاء والنون والفاء - على المفعول[1] .
وهكذا إبليس لعنه الله يأتي إلى الكفار وإلى من فيه قابلية للكفر ويضع الزمام في فمه ويقوده كما يقود الإنسان دابته .
وقال بعضهم في قوله تعالى مخبراً عن إبليس :
{ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ } أي لأستأصلنهم كما يستأصل الجراد الزرع ، ويقال : حنك الجراد الزرع إذا أكل الزرع كله ، والمعنى : لأُهلكنهم
{ إِلَّا قَلِيلًا } أي إلا أفراداً قلائل حفظتَهم يا رب بحفظك واعتصموا بك فما لي عليهم سلطة .
قوله تعالى :{ وَاسْتَفْزِزْ من استطعت منهم } وهذا من باب التمكين لإبليس ومن باب الاختيار والامتحان لبني آدم - أي : استنفرهم وحركهم وانفخ فيهم ما تريد -
{ بِصَوْتِكَ }أي بوسوستك التي تأتي بها إليهم
{ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ } أي : واستعن على هذا التزيين والتضليل بمن تريد من جنودك وأعوانك الخيالة منهم والرجالة .
ومن جملة جنود إبليس شياطين الإنس والملاحدة والمبتدعة .
{ وَعِدْهُمْ }أي المواعيد الباطلة والأماني الكاذبة
{ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا }
وهنا خاف المؤمنون من الشيطان أن يدخل عليهم هذه المداخل فقال تعالى ليطمْئن قلوب المؤمنين :
{ إِنَّ عِبَادِي } أي : الخاصة
{ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } يتوكلون عليه ويلتجئون إليه فلا يضرهم ولا يُضلهم .
وهكذا بين سبحانه أنه هو الذي أعطى إبليس أسباب التمكن من الوسوسة والتضليل والتزيين حتى يظهر ما فيك من خبث وطيب ومن خير وشر ،

---

[1] قال في لسان العرب ١٠ / ٤١٦ :
قوله عز وجل مخبراً عن إبليس : { لأحتنكن ذريته إلا قليلاً } مأخوذ من : (احتنك الجراد الأرض) إذا أتى على نبتها ، قال الفرَّاء : يقول : لأستولين عليهم إلا قليلا يعني المعصومين ، قال محمد بن سلام : سألت يونس عن هذه الآية فقال : يقال : كان في الأرض كلأ فاحتنكه الجراد أي أتى عليه ، ويقول أحدهم : لم أجد لجاماً فاحتنكت دابتي أي ألقيت في حنكها حبلاً وقدتُها ، وقال الأخفش في قوله لأحتنكن ذريته قال : لأستأصلنهم ولأستميلنهم ، واحتنك فلان ما عند فلان : أي أخذه كله ، واحتنك الرجل أخذ ماله كأنه أكله بالحنك

وإن إبليس لا يحدث أمراً لا وجود له فيك ، إنما يأتي إلى قلبك فإن وجد له مساراً ووجد له مقصداً حرَّك وهيج ونفخ وأثار الغبار ، وأما إذا مر على قلبك ولم يجد فيه إلا السلامة والطهارة والنقاء وليس فيه أمراض قلب وحسد وعجب وكبر وغش وحقد و ... فلا يجد إبليس عندئذ مقصداً وغرضاً في قلبك فيمر عليه ولا يمسه بسوء .

ومثل إبليس مع قلب الإنسان ككلب جائع يمر على الناس فلو رأى مع أحدهم ما يستطيبه من عظم أو جيفة راح يزعجه ويحاول إيذاءه ليحصل على مطلوبه ، وإذا لم يجد معه شيئاً فلا اعتداء له عليه بل يبتعد عنه بمجرد طرده وزجره ، فالأصل إذاً أن يكون قلب الإنسان نقياً .

ومن رحمته سبحانه بعباده أن جعل في مقابل خطرات الشياطين في صدر الإنسان جعل إلقاءات ملكية بواسطة ملائكة اللمم الذين أمرهم الله تعالى أن يلقوا في القلب الخطَرات والإلهامات الصادقة والإيعاد بالمواعيد الصادقة ، وفي هذا يقول سبحانه :{ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

وقد جاء بيان هذه الآية على لسان صاحب البيان عن القرآن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملك لمة [1]، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ{ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء }الآية) [2]

وإن خطرات الملائكة في القلب هي الإلهامات الإلهية

قال تعالى : { وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا }أي بواسطة الملائكة .

وقد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟

---

[1] قال في فيض القدير : (لمة) بالفتح من الإلمام وهو القرب ، والمراد : ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك

[2] انظر سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن وصحيح ابن حبان كتاب الرقائق وسنن النسائي الكبرى

قال : وإيّاي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني - أي فلا يأتيني - إلا بخير)[1]

وهكذا فكل مخلوق له قرينان ، وذلك على عادة الله تعالى في نظام الكون الحسي والمعنوي والعقلي والقلبي كما قال تعالى :

{ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } أي شيئين متقابلين حتى في هذه : قضايا القلوب والخطرات فهناك إلهامات ملكية بالخير ويقابلها خطرات ووساوس شيطانية بالشر .

وقد روى الشيخان[2] عن علي بن الحسين أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ثم قامت تنقلب - أي ترجع إلى حجرتها - فقام معها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ قريباً من باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بهما رجلان من الأنصار فسلَّما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نفذا - أي : أسرعا في السير - فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(على رِسْلكما) - أي لا تسرعا -

وفي رواية : (إنما هي صفية بنت حُيَيّ)

- أي هي زوجته صلى الله عليه وسلم وليست أجنبية -

قالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكَبُر عليهما ذلك

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً)

ولذلك رفع التهمة عنه عليه الصلاة والسلام رأفة بهما وخشية من أن يسيئا الظن به صلى الله عليه وسلم فيهلكا .

وهكذا جعل الله تعالى هناك باعثين ، أحدهما للخير والآخر للشر حتى يظهر اختيار الإنسان وإلى أيهما يميل وبأيهما يعمل ؟

وإن مثل الشيطان مع القلب كمثل رجل يمر على مدينة عامرة فإن كان له متاع دخل المدينة ، وإن لم يكن له فيها غرض مشى في طريقه ، فإن وجد إبليس في القلب بذور الفساد الكامنة في القلب راح يحركها وينفخها وليس له قدرة على خلق الفساد والضلال في القلب وإنما يهيج ما كمن في القلب من دواعي الفساد والشر ، أما من اشتغل بتصفية قلبه وتخليته من نوايا السوء ودواعي الفساد فلا سبيل للشيطان إليه .

---

[1] صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار

[2] انظر صحيح البخاري كتاب فرض الخمس وصحيح مسلم كتاب الزينة

ولقد جعل الله تعالى من عباده المؤمنين مَن إذا رآهم إبليس فرَّ منهم من بعيد فقد روى الشيخان عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال :
استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش - أي من قرابته صلى الله عليه وسلم - يكلِّمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر بن الخطاب قُمْن فبادرن الحجاب - وفي المسند [1] : فلما سمعن صوت عمر انقمعن وسكتن - فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر : أضْحَكَ الله سِنَّك يا رسول الله - أي تزال عمرك ضاحكاً مسروراً - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب) فقال عمر : فأنت أحقُّ أن يَهَبْنَ يا رسول الله ثم قال عمر : يا عدوَّات أنفسهن أتهبْنني ولا تهبْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فقلن : نعم ، أنت أفظُّ وأغْلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم
- وليس هذا من باب أفعل التفضيل لأن أفعل التفضيل هنا لم يأت على بابه ، بل مرادهن أن فيك الغلظة والشدة يا عمر - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إيه يا ابن الخطاب) - أي زِد في وعظهن - (والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً [2] قط إلا سلك فجاً غير فجك) [3]
واعلم أن عمر رضي الله عنه ما هو إلا قبسة من قبسات نور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأما طرق الوقاية من وساوس الشيطان والعلاج منها فهي :
أولاً : المداومة على ذكر الله تعالى قلباً ولساناً ، ومن غفل عن ذكر الله تعالى فقد عرَّض نفسه لتلاعب الشيطان فيه .
وفي الحديث الذي رواه أبو يعلى وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الشيطان واضع خطمه) - أي فمه وأنفه -
(على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس) - أي : اختفى وانقبض -
(وإن نسي الْتَقَم قلبه فذلك الوسواس الخناس) [4]

---

[1] ١٤٩٦

[2] قال في الفتح : أي طريقاً واسعاً

[3] انظر صحيح البخاري كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة

[4] انظر مسند أبي يعلى والدعاء للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي والتوبة لابن ابي الدنيا

وقال ابن عباس رضي الله عنهما :
[يُولَد الإنسان والشيطان جاثم على قلبه] - أي ملازمٌ جالس ينتظر أن ينفتح له القلب - [فإذا عقل وذكر اسم الله خنس ، وإذا غفل وسوس] [1]
ولذلك قال تعالى :{ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ } الذي يخنس وينقبض ويتلاشى إذا ذكر العبدُ اللهَ تعالى .
وقال تعالى :{ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ }
والمعنى :{ وَمَنْ يَعْشُ } أي يضعف قلبه
{ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ } لأن معنى الأعشى : الذي ضعف بصره [2]
وكما أن العمى الحقيقي هو عمى القلب فإن العشى أيضاً عشى القلب ، فمن يضعف قلبه عن ذكر الرحمن
{ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا } أي نسلط عليه شيطاناً
{ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } أي ملازم
{ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } أي سبيل الحق ويضلونهم ويزينون لهم
{ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } وما بالك بمن عمي قلبه عن ذكر الله ؟
فهؤلاء هم جنود إبليس وقد يصدر منهم من المكائد والشرور مالا يصدر عن إبليس نفسه لأن الشيطان قد وسوس لهم وقلوبهم مستعدة لفعل أقبح القبائح .
وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي عنه صلى الله عليه وسلم :
(إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها)
- وذكر صلى الله عليه وسلم من جملتهن قول يحيى عليه السلام -
(وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز) - أي لا يحفظ - (نفسه من الشيطان إلا بذكر الله) [3] .. الحديث .

---

[1] قال الحافظ ابن حجر في الفتح : أخرجه سعيد بن منصور
[2] قال في لسان العرب : قال القتيبي : معنى قوله تعالى { ومن يعش عن ذكر الرحمن } أي يظلم بصره . اهـ
وقال في معجم اللغة العربية المعاصرة : عشا : أي : ساء بصرُه باللَّيل وبالنَّهار ، أو أبصر بالنَّهار ولم يبصر باللَّيل .
[3] انظر المسند ١٦٥٤٢ وسنن الترمذي كتاب الأمثال

وقد روى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الشيطان قال : وعِزَّتك يا رب لا أبرح أُغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم
قال الرب : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني) [١]
وروى أبو يعلى في مسنده عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال : أهلكتُ الناس بالذنوب ، فأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتُهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون)
وفي رواية ابن أبي عاصم بزيادة : (فلا يستغفرون) [٢]
وهذا شأن أهل البدع والضلالات الذين اتبعوا ما استحسنته عقولهم ولم يجعلوا عقولهم وأهواءهم تبعاً لما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي خصَّه الله بالحكمة الكاملة ، قال تعالى :
{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }
ومن ظن أنه على صواب فهو لا يستغفر من ذنبه لأنه لا يرى لنفسه ذنباً أصلاً .
وقد قال صلى الله عليه وسلم :
(إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً ، قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) [٣]
وفي رواية : (قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : الجماعة) [٤]
وفي رواية :
(وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها على الضلالة ، إلا السواد الأعظم من كان على ما أنا عليه وأصحابي ، من لم يُمارِ في الدين دين الله ، ولم يكفّر أحداً من أهل التوحيد بذنب) [٥]

---

[١] ١٠٨٠٢ ورواه الحاكم في المستدرك وقال :
هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه
[٢] انظر السنة لابن أبي عاصم
[٣] كما في سنن الترمذي واللفظ له وانظر سنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم والمعجم الكبير للطبراني
[٤] طرف حديث في سنن ابن ماجه كتاب الفتن
[٥] طرف حديث عزاه في كنز العمال للديلمي

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الفرقة الناجية . آمين
وهكذا فإن إبليس يأتي بني آدم عن طريق الهوى النفسي ، وقد يأتي عن طريق الشهوات البهيمية والحيوانية والطعامية والشرابية .
ومن اتقى الله تعالى جعل الله تعالى تقواه وقاية له مما يخشاه ، ومن وقاه الله تعالى أي جعل وقايته به سبحانه فلا سبيل لإبليس عليه ، كما قال تعالى :
{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ }
وإن التقوى على أنواع ومراتب ، فهناك تقوى الأجساد وهي اجتناب ما حرَّم الله وامتثال ما أمر ، وأما تقوى القلوب فمنها تعظيم شعائر الله تعالى كما قال تعالى :
{ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ } أي معالم دينه { فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } .
ومن تقوى القلوب : الإخلاص في الأعمال والأقوال ، وهناك تقوى العقول وهي أن لا تجول بعقلك وتدخل به في مداخل لم يُحل ّ الله تعالى الدخول بها بل عليك أن تتعقل في المخلوقات وأن تتجنب التفكر في أمور يعتريك الشك فيها لضعف في استعدادك .
وإن إبليس يتربَّص بالمؤمن أوقات غفلته ويزين له ويوسوس له حتى يكاد يوقعه في الذنب فيتنبه المؤمن عندئذ من غفلته ويتذكر عظمة الله تعالى وما وعد الله به ، وإن التذكر على حسب مرتبة كل مؤمن في التقوى ، ونتيجة هذا التذكر أنه يرجع ويتوب من غفلته وما وسوس له الشيطان .
وفي الأثر الذي رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن يحيى بن أيوب الخزاعي قال :
سمعت من يذكر أنه كان في زمن عمر بن الخطاب شاب متعبد قد لزم المسجد وكان عمر به معجباً - أي : معجباً بصلاحه وتقواه - ، وكان له أب شيخ كبير فكان إذا صلى العتمة انصرف إلى أبيه ، وكان طريقه على باب امرأة فافتتنت به فكانت تنصب نفسها له على طريقه ، فمرَّ بها ذات ليلة فما زالت تغويه حتى تبِعها فلما أتى الباب دخلت وذهب يدخل فذكر الله تعالى وجلّي عنه ومثلت هذه الآية على لسانه
{ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون }
قال : فخرّ الفتى مغشياً عليه فدعت المرأة جارية لها فتعاونتا عليه فحملتاه إلى بابه ، واحتبس على أبيه فخرج أبوه يطلبه فإذا به على الباب مغشياً عليه ، فدعا بعض أهله فحملوه فأدخلوه ، فما أفاق حتى ذهب من الليل ما شاء الله عز وجل فقال له أبوه : يا بني ما لك ؟ قال : خير ، قال : فإني أسألك ، قال : فأخبر بالأمر ، قال : أي بُنَيَّ وأيّ آية قرأت ؟

فقرأ الآية التي كان قرأ فخرَّ مغشياً عليه فحرَّكوه فإذا هو ميت فغسّلوه وأخرجوه ودفنوه ليلاً فلما أصبحوا رفع ذلك إلى عمر رضي الله عنه فجاء عمر إلى أبيه فعزّاه به وقال : ألا آذنتني ، قال : يا أمير المؤمنين كان الليل قال : فقال عمر : فاذهبوا بنا إلى قبره ، قال : فأتى عمر ومن معه القبر فقال عمر : يا فلان { ولمن خاف مقام ربه جنتان }

فأجابه الفتى من داخل القبر :

يا عمر قد أعطانيهما ربي عز وجل في الجنة ..... مرتين [١]. اهـ

ولقد أخبر الله تعالى عن إبليس قوله :

{ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ }.

فما إبليس إلا كقاطع طريق يعترض سالكي هذا الطريق وهو طريق شرع الله تعالى .

وروى الإمام أحمد في مسنده والنسائي في سننه عن سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه) - بضم الراء جمع طريق أي قعد له في طرقه كلها -

(فقعد له بطريق الإسلام فقال له : أتُسْلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فَعَصَاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول [٢]؟

قال : فعصاه فهاجر ، قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتُنكَح المرأة ويُقسم المال ، قال : فعصاه فجاهد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فمن فعل ذلك منهم)- أي بأن عصى إبليس -

---

[١] وجاء في كتاب ذم الهوى لابن الجوزي قول الشاب :

قَدْ أَعْطَانِيهُمَا رَبِّي يَا عُمَرُ

[٢] قال الحافظ السيوطي في شرح سنن النسائي ٤ / ٤٠٨ :

بكسر الطاء وفتح الواو وهو الحبل الذي يُشد أحد طرفيه في وتد والطرف الآخر في يد الفرس ، وهذا من كلام الشيطان ومقصوده أن المهاجر يصير كالمقيد في بلاد الغربة لا يدور إلا في بيته ولا يخالطه إلا بعض معارفه فهو كالفرس في طول لا يدور ولا يرعى إلا بقدره بخلاف أهل البلاد في بلادهم فإنهم مبسوطون لا ضيق عليهم فأحدهم كالفرس المرسل .

(فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قُتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وَقَصَتْه دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة) [1]
أي أن كل ما يعتري ابن آدم في طريق الإسلام والجهاد فله به حسن العاقبة ، وعليه أن يعصي إبليس وأن يمضي فإن رجع فهو على خير ، وإن مات فهو على خير ، وإن قتل فهو في الجنة وهكذا ..
قوله :{ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ } : أي أن إبليس يأتي ابن آدم من جهاته الأربعة ، ويدخل على كل جهة من هذه الجهات من باب .
{ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ } أي مما يستقبلونه ويصيرون إليه لأن الإنسان إنما تستقبله عوالم الآخرة ، فلما يأتي الشيطان الناس من بين أيديهم يُلقي إليهم الريب والشكوك في قضايا الآخرة ويزيّن لهم ، ويأتي من خلفهم أي مما يتركونه وراء ظهورهم من الدنيا فيرغِّبهم فيها ، ويزين لهم زخارف الدنيا وحطامها وأموالها ، فإبليس يأتي الإنسان من خلفه حتى يلتفت إليه ويشغله عن أمور دينه .
{ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ } أي عن ما قوي عندهم من الحسنات التي تعبوا عليها ، والقوة التي صرفوها فيما يرضي الله ، ولعله يُدخل عليهم العجب فتبطل حسناتهم ، ولعله يُدخل عليهم الرياء والكبر والغرور وهكذا فتحبط أعمالهم فهو يأتي عن يمين الإنسان حتى يهدم ما فيه من القوة ، ويأتي عن الشمال بأن يزين للإنسان فعل السيئات والذنوب والخطايا حتى يوقعه فيها .
ومن ناحية أخرى : قوله { لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ } أي مما قوي عندهم واعتقدوه وصار متمكناً بين أيديهم وهي العقائد الإيمانية كما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول : مَن خلق السماء ؟ فيقول : الله عز وجل ، فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله ، فيقول : مَن خلق اللهَ)
- ويريد بذلك تشويش العقيدة -
(فإذا أحس أحدكم بشيء من هذا فليقل : آمنتُ بالله وبرسله) [2]

---
[1] ١٥٣٩٢ وسنن النسائي كتاب الجهاد
[2] انظره في مسند الإمام أحمد ٨٠٢٦ بهذا اللفظ وهو في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وفي رواية :
(يوشك الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم : هذا الله خَلَقَ الخلقَ ، فمَن خلق اللهَ ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا : { الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد } ثم ليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم) [1]
ثم يأتي إبليس من جهة اليمين ويقول للمؤمن : أنت تقول { إياك نعبد وإياك نستعين } فأنت تعبده فهل يُعينك هو أم أن العباد يعينونك ؟
- يريد أن يحطم عليك معونتك وقوتك بالله تعالى -
ويأتي من جهة الخلف ويزين له فعل بعض المحرمات .
وإن مداخل إبليس على بني آدم تختلف من شخص إلى آخر على حسب تفكيره وإيمانه وهكذا ، فيأتي أولاً من باب المحرمات ، فإن عجز فيأتي من باب الصغائر ، فإن عجز فيأتي من باب المباحات ، فإن عجز فيأتي من باب السنن والمندوبات والفرائض ، ولا يحرز المؤمن نفسه من الشيطان إلا بالاعتصام بالله تعالى والاستعاذة به سبحانه .
وروى أبو داود في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :
لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح :
(اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عورتي)
- وقال عثمان : (عوراتي) -
(وآمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي)
قال أبو داود : قال وكيع : يعني الخسف [2]
وتلك الجهات الأربعة التي يأتي منها إبليس ، وهذا تعليم للأمة وإلا فهو صلى الله عليه وسلم معصوم بعصمة الله تعالى .
ومن دعائه صلى الله عليه وسلم :
(اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن يساري نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، واجعلني نوراً) [3]
لأن النور والظلمة لا يجتمعان ، فمن حصل على النور طرد الشياطين من حوله .

---

[1] رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة
[2] انظر سنن أبي داود كتاب الأدب وسنن ابن ماجه كتاب الدعاء والمسند ٤٥٥٤
[3] انظر المسند ٢٤٣٦

وقد قال الله تعالى في حق المؤمنين :{ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } فصار الشمال يميناً في الآخرة ، وإذا حصلت على النور من بين يديك وعن يمينك وعن شمالك وتركت نوراً خلفك فهو لمن وراءك كما دعا صلى الله عليه وسلم ربه تبارك وتعالى في الحديث المتقدم ذكره بأن يجعل الله له من أمامه نوراً ومن خلفه نوراً وهذا النور لأتباعه صلى الله عليه وسلم .

وهذا شأن كمَّل المؤمنين أن يكون النور الذي خلفهم إنما هو لأتباعهم وأولادهم لكي يكونوا على بصيرة من أمرهم ، قال تعالى :

{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي }

ورحم الله امرءاً سعى في تحصيل نور خلفه وراء ظهره حتى يستنير به أولاده وينتهجوا عليه ، ولا تكن ممن إذا مات انقطعت أنواره بعده ، فكما تسعى في الدنيا وتكدح في جمع المال حتى لا تترك أهلك في فاقة من بعدك فالأجدر والأولى بك أن تسعى في تحصيل نور يستنير به أهلك وأولادك من بعدك ، وذلك بأن تسلكهم مسلك الدين وحب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين وهكذا ، وذلك حتى يحصل لك الاجتماع بهم يوم القيامة ، وهذا هو النور الذي تتركه لمن خلفك .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

الفهرس